كلية اللغة العربية بأسيوط
المجلة العلميـة

دور المماليك الأسدية إبان العصر الأيوبي

إعداد

الدكتور / حمادة مصطفى إسماعيل سيد

الأستاذ المساعد بقسم التاريخ والحضارة
في كلية اللغة العربية جامعة الأزهر بأسيوط

(العدد الثالث والثلاثون – الجزء الثالث ٢٠١٤م)

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم أجمعين ، وبعد :

يعد عصر الدولة الأيوبية من أهم المراحل التاريخية في العصور الوسطى ؛ بسبب ما شهده الشرق الإسلامي في ذلك العصر من حركة استعمارية قام بها الغرب الأوروبي ، وهي التي عرفت بالحروب الصليبية ، وعلى الرغم من كثرة الدراسات التي تناولت العصر الأيوبي إلا أن هناك العديد من الجوانب ما زالت بحاجة للبحث والدراسة ، لا سيما وأن هذه الحقبة كانت غنية بتغيراتها وصراعاتها ، وقد تجلى في العصر الأيوبي طابع تقاليد الدولة الزنكية[1] ، خاصةً وأن الأيوبيين نشأوا في كنفها ؛ لذا فقد ورثوا كثيرًا من تقاليدها ، ومنها استخدام المماليك في الجيوش والإقطاع الحربي.

وكان من ضمن هؤلاء المماليك الذين تم استخدامهم في الجيوش فرقة الأسدية ، تلك الفرقة التي أدت دورًا حربيًا كبيرًا في العصر الزنكي ، وانضم أفرادها إلى تشكيل صلاح الدين الجديد لجيشه ، كما قامت بدور كبير إبان العصر الأيوبي في الجوانب الحربية والسياسية والإدارية على الرغم من قلة عدد أفرادها .

(١) تُنسَب الدولة الزنكية إلى مؤسسها عماد الدين زنكي بن آق سنقر، ويرجع تاريخ نشأتها إلى وقت اعتلائه سدة الحكم في الموصل سنة (٥٢١هـ/ ١١٢٧م) ، وانتهت بوفاة ابنه نور الدين محمود سنة (٥٦٩هـ/١١٧٤م). علي الصلابي : الدولة الزنكية ونجاح المشروع الإسلامي بقيادة نور الدين محمود "الشهيد" في مقاومة التغلغل الباطني والغزو الصليبي ، دار المعرفة – بيروت ٢٠٠٧م ص ٢٣ ، ٤٣ ، ٦٠٨.

ولقد لاحظت أثناء قراءتي في المصادر التاريخية عن تاريخ الدولة الأيوبية أن فرقة المماليك الأسدية كان لها نشاط واضح في العديد من الجوانب ، وعلى الرغم من ذلك لم يتناولها أحد من الباحثين من قبل بدراسة مستقلة .

ونظراً لعدم وجود كتب أو أبحاث تناولت دور المماليك الأسدية في العصر الأيوبي ، ولتوفر المصادر والمراجع التاريخية والمادة العلمية حول هذا الموضوع ولأهميته من وجهة نظري ؛ فقد اتجهت لدراسة هذا الموضوع والكتابة عنه تحت عنوان:

" دور المماليك الأسدية إبان العصر الأيوبي "

وقد انقسم البحث إلى تمهيد وفصلين بخلاف المقدمة والخاتمة :

أما التمهيد: فقد تناولت فيه نبذة عن المماليك الأسدية ودورهم في العصر الزنكي الذي اقتصر على الناحية العسكرية فقط .

والفصل الأول : خصصته لدراسة دور المماليك الأسدية في عهد صلاح الدين وتناولت فيه موقف المماليك الأسدية من تولي صلاح الدين الوزارة ، وانضمام المماليك الأسدية إلى جيش صلاح الدين ، ودورهم في حماية مصر من الأخطار الداخلية والخارجية ، وكذلك دورهم في توحيد الجبهة الإسلامية ، وجهاد الصليبيين ، كما تناولت الوظائف التي تولاها المماليك الأسدية في عهد السلطان صلاح الدين .

أما الفصل الثاني: فقد خصصته لدراسة دور الأسدية في زمن خلفاء صلاح الدين ، فتناولت موقفهم من النزاع بين الأفضل والعزيز ، وكذلك موقفهم من تولي المنصور محمد بن العزيز عثمان لمصر ، ودورهم في خروج الملك الأفضل للاستيلاء على دمشق ، ودورهم في عزل الملك المنصور ، وموقفهم من محاولة الأفضل والعزيز الاستيلاء على دمشق في عهد العادل ، وجهودهم الحربية ضد

الصليبيين ، والوظائف التي شغلوها في زمن خلفاء صلاح الدين، ثم تناولت تواري دور المماليك الأسدية.

أما الخاتمة: فهي تلخيص لأهم معطيات البحث ونتائجه.

وقد اعتمدت في هذه الدراسة على العديد من المصادر المهمة والتي يعتبر أكثرها معاصراً للأحداث مثل كتاب " البرق الشامي " للعماد الكاتب الأصفهاني المتوفى سنة (٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م) والكتاب يؤرخ للفترة من سنة (٥٦٢-٥٨٩هـ) في عدة أجزاء فُقد معظمها ولم يتبق منها سوى الثالث والخامس .

ومن الكتب المهمة أيضًا لنفس المؤلف كتاب "الفتح القسي في الفتح القدسي أو حروب صلاح الدين وفتح بيت المقدس" وهو تاريخ لفترة سبع سنوات من سنة (٥٨٣-٥٨٩هـ) من حياة صلاح الدين ووصف لمعركة حطين وطرد الصليبيين من بيت المقدس.

وكتاب " النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية المعروف بسيرة صلاح الدين" للقاضي بهاء الدين بن شداد ت (٦٣٢هـ/١٢٣٤م) والكتاب سيرة ذاتية تاريخية اهتم فيه المؤلف بذكر مولد الناصر صلاح الدين الأيوبي ونشأته وأحواله وفتوحاته في تواريخها ، ثم انتهى الكتاب بمرض ووفاة صلاح الدين الأيوبي ، ويمتاز الكتاب بمعاصرة مؤلفه للأحداث.

وكتاب"الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية " لأبي شامة المتوفى سنة (٦٦٥هـ / ١٢٦٦م) أفرد المؤلف كتابه للتأريخ للدولتين الزنكية والأيوبية، ويعتبر من أوسع الكتب التي أرخت لهما وما تخللهما من حروب مع الصليبيين.

ومن الكتب الجديرة بالذكر كتاب "مفرج الكروب في أخبار بني أيوب " لابن واصل المتوفى سنة (٦٩٧هـ/ ١٢٩٧م) ويعالج الكتاب تاريخ الدولة الأيوبية منذ

قيامها وحتى نهايتها، ويمتاز الكتاب بأنه خُصص للتأريخ للدولة الأيوبية واحتوى على تفصيلات وافية عنها ؛ لذا يعد أوفى تاريخ للدولة الأيوبية.

هذا بالإضافة إلى العديد من المصادر والمراجع المهمة التي اعتمدت عليها والمثبتة في نهاية البحث .

وأرجو أن أكون قد وفِّقت في هذه الدراسة ، والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل.

إعداد

د. حمادة مصطفى إسماعيل سيد

الأستاذ المساعد بقسم التاريخ والحضارة

في كلية اللغة العربية جامعة الأزهر بأسيوط

تمهيد

المماليك الأسدية

يُنسب المماليك الأسدية إلى أسد الدين شيركوه [١] ، أحد أكبر وأهم قواد السلطان نور الدين محمود زنكي[٢]، حيث كانت لديه فرقة من المماليك بلغت عند وفاته خمسمائة مملوك ، وفي ذلك يذكر أبو شامة أنه: "عندما مات أسد الدين شيركوه ترك مالاً كثيراً ، بالإضافة إلى الكثير من الخيل والدواب والجمال ، وخلف جماعة من الغلمان ، عددهم خمسمائة مملوك ، وهم المماليك الأسدية" [٣].

(١) أبو الحارث شيركوه (وشيركوه تعنى أسد الجبل) بن شاذي بن مروان الملقب الملك المنصور أسد الدين ، مات فجأة يوم السبت الثاني والعشرين أو الثالث والعشرين من جمادي الآخرة سنة (٥٦٤هـ / ١١٦٩م) بالقاهرة ودفن بها ثم نقل إلي مدينة الرسول ﷺ ابن خلكان : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق / إحسان عباس . دار صادر – بيروت (د.ت) جـ ٢ ص ٤٧٩ ، ٤٨٠ ،الذهبي : تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام ، تحقيق/عمر عبد السلام تدمري ، دار الكتاب العربي – بيروت ١٤١٧هـ/١٩٩٦م جـ ٣٩ ص ١٩٤– ١٩٦، الحنبلي : شفاء القلوب في مناقب بني أيوب تحقيق / مديحة الشرقاوي – مكتبة الثقافة الدينية – القاهرة ١٩٩٦م ، ص ٢٥– ٤٤.

(٢) السلطان الملك العادل نور الدين أبو القاسم محمود بن زنكي صاحب الشام ومصر المعروف بنور الدين الشهيد ولد بحلب في السابع عشر من شوال سنة (٥١١هـ / ١١١٧م) ومات سنة (٥٦٩هـ / ١١٧٣م) وفتح في أيام سلطنته نيفًا وخمسين حصنًا ، ابن كثير : البداية والنهاية ، تحقيق /عبد الله التركي ، هجر للطباعة والنشر –القاهرة ١٤١٩هـ/١٩٩٨م جـ ١٦ ص ٤٨٠ – ٤٩٣ ، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، تعليق / محمد حسين شمس الدين ، دار الكتب العلمية – بيروت ١٩٩٢م جـ٦ ص ٦٥ ، ٦٦.

(٣) الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية ، علق عليه ووضع حواشيه/ إبراهيم شمس الدين ، دار الكتب العلمية– بيروت ٢٠٠٢م جـ ٢ ص ٧.

وقد جرت العادة أن تنسب كل فرقة من فرق الجيش الأيوبي إلى سلطان سابق أو أمير مثل: المماليك النورية نسبة إلى السلطان نور الدين محمود ، والأسدية نسبة إلى أسد الدين شيركوه ، والصلاحية نسبة إلى السلطان صلاح الدين وكانوا يُسمون- أيضًا - الناصرية نسبة إلى لقبه [١] ، وعلى الرغم من ذلك فإن فرقة الأسدية لم يطلق عليها هذا الاسم إلا بعد وفاة أسد الدين شيركوه ، فلم نجد مؤرخًا من المؤرخين أطلق عليهم الأسدية في أيام أسد الدين شيركوه ، أما عن تكوين هذه الفرقة فقد ذكر بعض الباحثين: أنها تكونت من المماليك الفرسان الترك والأكراد والتركمان [٢] ، بينما ذكر هاملتون جب : أن فرقة المماليك الأسدية أنشأها شيركوه من الفرسان الأكراد[٣].

وقامت فرقة المماليك الأسدية تحت قيادة أسد الدين شيركوه بدور حربي كبير إبان عهد السلطان نور الدين محمود زنكي ، كما ظلت تلك الفرقة تعمل في خدمة صلاح الدين الأيوبي بعد وفاة عمه أسد الدين شيركوه [٤] واضطلعت بدور بارز في أحداث الدولة الأيوبية من النواحي الحربية والسياسية والإدارية في مصر وبلاد الشام [٥].

---

(١) عبد الرحمن زكي : الجيش المصري في العصر الإسلامي من الفتح العربي إلى معركة المنصورة ، مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة ١٩٧٠م ص ٨٢.

(٢) نجوى كمال كيرة : الجواري والغلمان في مصر في العصرين الفاطمي والأيوبي ، مكتبة زهراء الشرق - القاهرة ٢٠٠٧م ص ٣٥١ .

(٣) صلاح الدين الأيوبي ، حررها / يوسف أيبش ، بيسان للنشر والتوزيع والإعلام - بيروت ١٩٩٥م ، ص ١٥٤ ، ١٥٥.

(٤) المرجع نفسه ص ١٥٤ ، ١٥٥.

(٥) محسن محمد حسين : الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين ، دار آراس ، أربيل - كردستان العراق ٢٠٠٢ م ص ٤٣ ، ٤٣.

دور المماليك الأسدية في العصر الزنكي

كان لأسد الدين شيركوه ومماليكه فضل كبير في فتوحات السلطان نور الدين محمود ؛ حيث استطاع أسد الدين بجيشه الذي كان يتكون من المماليك والأمراء النورية ، مضافًا إليهم فرقة المماليك الأسدية [١] أن يسهم في العديد من الانتصارات التي حققها نور الدين محمود سواء في توحيد الجبهة الإسلامية ، أم في جهاد الصليبيين ، حتى يمكن الجزم بأنه قد عظم أمره بسببها لما له فيها من أياد بيضاء [٢].

ومن الأدوار المهمة التي قاموا بها ذلك الدور الكبير في فتح دمشق ودخولها في مُلك نور الدين محمود ، وذلك عندما قام نور الدين محمود بإرسال أسد الدين شيركوه رسولاً إلى صاحب دمشق في سنة (٥٤٩هـ/١١٥٤م) فسار إليها في ألف فارس ، وفي ذلك الصدد يذكر أبو شامة نقلاً عن ابن أبي طي : " فخرج في تجمل عظيم ومعه ألف فارس ، فعظم على مجير الدين ذلك ، وقال : ما هذه رسالة ، هذه مكيدة ، ولم يتجاسر على الخروج إلى لقائه ولا أحد من أمراء دمشق ، فاستوحش أسد الدين ، ونزل بمرج القصب ، وأغلظ لصاحب دمشق في المقال ، وأنفذ إلى نور الدين يعرفه بما جرى عليه ، فسار نور الدين في عساكره وزحف إلى البلد من شرقيه ، وكانت الحرب في عاشر صفر ، وتولى أسد الدين القتال ، وأبلى الجهد فكسر عساكر دمشق إلى الأسوار من قبلي البلد ، ولم يكن أحد من المقاتلة على السور من ذلك الجانب لأن نور الدين كان من شرقيها ، وجُل العساكر مقابلُه " ، وذكر أيضاً : " وملك نور الدين دمشق ، وكان لأسد الدين اليد الطولى في فتحها ،

(١) أحمد مختار العبادي : في تاريخ الأيوبيين والمماليك ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر – بيروت ١٩٩٥م ص ٤٣.

(٢) أبو شامة : الروضتين في أخبار الدولتين جـ١ ص ٢١٦.

فولاه نور الدين أمرها ، ورد إليه جميع أحوالها ، وفي هذه السنة أقطعه نور الدين الرحبة "[١] ثم تولى أمر دمشق بعد ذلك نجم الدين أيوب[٢] بعد أن توسط له أسد الدين شيركوه لدى نور الدين في سنة (٥٥٠هـ/١١٥٥م) [٣].

وفي سنة (٥٥٢هـ/١١٥٧م) انتصر أسد الدين شيركوه على سرية صليبية ظهرت في معاقلهم من ناحية الشمال ؛ وذلك بفضل انضمام عدد كبير من شجعان التركمان إليه [٤] ، ثم اتجه بعد ذلك إلى بعلبك [٥] ومعه تلك القوات الكبيرة التي تكونت من الأسدية والنورية ومن مقدمي التركمان وأبطالهم ، واجتمعوا بنور الدين محمود واتفقوا على مهاجمة المعاقل الصليبية مبتدئين بحصن بانياس[٦] ، وفي

(١) الروضتين في أخبار الدولتين جـ ١ ص ٢٨٧، والرحبة : قرية من قرى دمشق انظر: ياقوت : معجم البلدان ، دار صادر – بيروت ١٩٧٧م جـ٣ ص٣٣

(٢) أيوب بن شاذي بن مروان الملقب الملك الأفضل نجم الدين والد صلاح الدين توفى يوم الأربعاء السابع والعشرين من ذي الحجة سنة (٥٦٨هـ/١١٧٢م) . ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ١ ، ص ٢٥٥ . ٢٦١.

(٣) أبو شامة : الروضتين في أخبار الدولتين جـ ١ ص ٢٩٦.

(٤) المصدر نفسه جـ ١ ص ٢٨٧.

(٥) بعلبك : مدينة لبنانية تقع في منطقة البقاع ، تحيط بها من الشرق والغرب سلسلتا جبال لبنان الشرقية والغربية ، تعلو عن البحر ١١٥٠م ، وتبعد عن بيروت ٩٠ كم . كمال موريس شربل : الموسوعة الجغرافية للوطن العربي ، دار الجيل–بيروت ١٩٩٨م ص ١١١.

(٦) بانياس : مدينة قريبة من دمشق ، وهي صغيرة ولها قلعة يستدير بها نهر يفضي إلى أحد أبواب المدينة . الحميري : الروض المعطار في خبر الأقطار ، تحقيق/ إحسان عباس ، مؤسسة ناصر للثقافة – بيروت ١٩٨٠م ص ٧٤ ، وهي في جنوب الجولان ، وفيها جزء مهم من موارد مياه الجولان . مسعود الخوند : الموسوعة التاريخية الجغرافية ، دار رواد النهضة للطبع والنشر والتوزيع – بيروت ١٩٩٧م جـ ١٠ ص ٣١٦.

أثناء حصار بانياس استطاع أسد الدين شيركوه وقواته أن ينتصروا على سرية صليبية مكونة من مائة فارس [١].

ثم تمكن نور الدين محمود ومعه أسد الدين وقواته من فتح حصن بانياس في الثامن والعشرين من ربيع الأول من سنة (٥٥٢هـ/١١٥٧م) وأرسل الغنيمة والأسرى مع أسد الدين إلى دمشق ، كما أرسل معه ألف فارس ، وعندما وصل خبر ذلك إلى الصليبيين جهزوا سرية لقطع الطريق على أسد الدين ، فعلم أسد الدين بأمر تلك السرية ، وفي ذلك يذكر أبو شامة نقلاً عن ابن أبي طي : " واتصل هذا بأسد الدين وقد دهمته الفرنج فلبس لأمته ، وتقدم في جماعة من مماليكه بين يدي العسكر ، وأمر الرجال بلقاء الفرنج ، وناجزهم الحرب ، فلم يتماسكوا بين يديه ، ورجعوا على أدبارهم ، وتبعهم مقدار فرسخين[٢] يقتل ويأسر ، وغنم منهم غنيمة حسنة ، وعاد إلى أصحابه ظافرًا ، وتوجه في وجهته مؤيَّدًا "[٣].

وعندما مرض نور الدين محمود في سنة (٥٥٢هـ/١١٥٧م) كلَّف أسد الدين شيركوه بالتوجه إلى دمشق مع قواته لحفظ أعمالها خوفاً من الصليبيين الذين تجمعوا لمهاجمة أملاك نور الدين في بلاد الشام ، واستمر في مهمته حتى جاءته الأخبار بشفاء نور الدين وعزمه على استدعاء الجيوش للجهاد فسارع بالخروج من

(١) أبو شامة : الروضتين في أخبار الدولتين جـ ١ ص ٣١١ ، ٣١٢.

(٢) الفرسخ : واحد الفراسخ فارسي معرب ، وهو ثلاثة أميال أو ستة ، أو اثنا عشر ألف ذراع أو عشرة آلاف ذراع ، ويقدر ب 5.9193 كيلومتر . شرين ثابت حسني عبد الجواد : ألفاظ المقادير في العربية (دراسة في البنية والدلالة) رسالة ماجستير غير منشورة في اللغة العربية من كلية الدراسات العليا – جامعة النجاح – نابلس – فلسطين ٢٠١٢م

(٣) أبو شامة : الروضتين في أخبار الدولتين جـ ١ ص ٣١٤.

دمشق إلى حلب مع مماليكه واجتمع بنور الدين فأكرمه وشكره ، ثم شرعوا في حماية البلدان من الصليبيين [١].

وفي سنة (٥٥٤هـ/١١٥٩م) قام الصليبيون بهجمات على حوران[٢] ؛ الأمر الذي جعل نور الدين محمود يخرج من حلب إلى دمشق ، ويأمر قواته بالاستعداد لقتال الصليبيين ، ثم يرسل أسد الدين شيركوه في مجموعة من العسكر للإغارة على صيدا ، فسار أسد الدين بقواته ومعه أخوه نجم الدين أيوب وأولاده ثم قام بهجوم مباغت على صيدا ، وقتل وأسر عددًا كبيرًا من الصليبيين ، وغنم الكثير من الغنائم ، وعاد واجتمع بنور الدين على جسر الخشب [٣].

ومن أبرز الأدوار التي قام بها أسد الدين شيركوه مع مماليكه الأسدية والجيش النوري [٤] تلك الحملات التي اتجهت إلى مصر والتي كانت بقيادته ، وذلك عندما هرب شاور[٥] وزير الدولة الفاطمية إلى الشام بعد هزيمته من ضرغام [٦]

(١) أبو شامة : المصدر السابق جـ ١ ص ٣١٥.

(٢) حوران : من أعمال دمشق، ومدينتها بصرى . الحميري : الروض المعطار ص ٢٠٦ ، وحوران : الإسم التاريخي لمحافظة درعا الحالية ، وتمتد من مشارف دمشق شمالًا حتى الأردن جنوبًا ، وحتى جبل العرب شرقًا على مساحة ٤٦٠ كم ٢ مسعود الخوند : الموسوعة التاريخية الجغرافية جـ ١٠ ص ٢٨٩.

(٣) أبو شامة : المصدر السابق جـ ١ ص ٣٤١.

(٤) محسن محمد حسين : الجيش الأيوبي ص ٤٣.

(٥) أبو شجاع شاور بن مجير بن نزار بن عشائر بن شأس بن مغيث بن حبيب بن الحارث ابن الحارث بن ربيعة بن يخنس بن أبي ذؤيب عبد الله ، قتل في ربيع الآخر سنة (٥٦٤هـ / ١١٦٩م) .ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ٢ ، ص ٤٣٩ ـ ٤٤٣.

(٦) الملك المنصور أبو الأشبال ضرغام بن سوار اللخمي قتل يوم الجمعة الثامن والعشرين من شهر جمادي الآخرة وقيل في رجب سنة (٥٥٩هـ / ١١٦٤م) . ابن خلكان: المصدر السابق جـ ٢ ، ص ٤٤٢ ، ٤٤٣ .

في عام(٥٥٩هـ/ ١١٦٤م) ودخل على الملك العادل نور الدين محمود فطلب منه النجدة والعساكر ليستعين بهم على خصمه ضرغام ، مقابل أن يكون لنور الدين حصة في البلاد ، ويكون شاور متصرفًا تحت أمره ونهيه واختياره [١].

وعلى الرغم من تردد السلطان نور الدين محمود في هذا الأمر لما هنالك من أخطار جسيمه على جيشه ؛ نظراً لتوسط الصليبيين بينه وبين الديار المصرية [٢]، إلا أنه قوي عزمه وصمم على إجابة طلب شاور بعد أن استخار الله – سبحانه وتعالى – ثم أمر أسد الدين شيركوه بتجهيز الجيش والسير إلى مصر فسار أسد الدين بجيشه إلى مصر وفي صحبته شاور واصطحب معه ابن أخيه صلاح الدين يوسف ، وسار معهم نور الدين بجيشه إلى ما يلي دمشق ليشغل الصليبيين عن التعرض لأسد الدين ، وكان ذلك في سنة (٥٥٩هـ/ ١١٦٤م) [٣].

ثم وصل أسد الدين شيركوه إلى القاهرة في أواخر جمادى الأول ، فخرج ضرغام من القاهرة هارباً فأُدرك وقُتل قرب مشهد السيدة نفيسة ، كما قتل أخوه

(١) ابن واصل : مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ، تحقيق / جمال الدين الشيال ، دار الفكر العربي ، القاهرة (د.ت) جـ ١ ص ١٣٨.

(٢) ابن شداد : النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، تحقيق / جمال الدين الشيال ، مكتبة الخانجي– القاهرة ١٩٩٤م ص ٧٥ ، ٧٦ ، ابن واصل : المصدر السابق جـ ١ ص ١٣٨.

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ١ ص١٣٨، سعيد عبد الفتاح عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام ، دار النهضة العربية – القاهرة ١٩٩٦ م ص ١٢ ، ١٣، شاكر مصطفى : صلاح الدين الفارس المجاهد والملك الزاهد المفترى عليه دار القلم– دمشق١٩٩٨م ص ٣٤ ، ٣٥ .

ناصر الدين ، ودخل أسد الدين شيركوه القاهرة منتصراً وأعاد شاور إلى منصبه في الوزارة، ثم أقام أسد الدين معسكره بظاهر القاهرة [١].

وبعد أن عاد شاور إلى منصب الوزارة حنث بكل وعوده لنور الدين محمود ، وغدر بأسد الدين شيركوه ، وأرسل إليه يطلب منه الرجوع للشام ، ولكن أسد الدين رفض الاستجابة لطلبه ، وسارع إلى الاستيلاء على بلبيس [٢] ، وحَكَم البلاد الشرقية [٣].

ولم يَسَعْ شاور إلا أن يستنجد بعموري الأول ملك بيت المقدس الذي وجد في هذا الأمر فرصة سانحة لدخول مصر والاستيلاء عليها ، خاصة وأن الصليبيين كانوا يعرفون أن استيلاء نور الدين محمود على مصر يعني استئصال ممتلكاتهم في بلاد الشام [٤].

---

(١) ابن واصل : المصدر السابق جـ ١ ص ١٣٨ ، ١٣٩ ، ابن أيبك الدواداري : كنز الدرر وجامع الغرر (الدر المطلوب في أخبار ملوك بني أيوب) تحقيق/سعيد عاشور –القاهرة ١٩٧٢م جـ ٧ ص ٢٦.

(٢) بلبيس : ذكر عنها ياقوت بأنها : مدينة بينها وبين فسطاط مصر عشرة فراسخ . معجم البلدان جـ ١ ص٤٩٧ ، وأنشئ في سنة ١٨٢٦م باسم قسم بلبيس ، وجعل مقره بها ، وكانت دائرة اختصاصه في ذلك الوقت تشمل ١٥٢ بلدة من بلاد مديرية الشرقية ، وفي سنة ١٨٧١م سمي مركز بلبيس ولا يزال بها إلى اليوم . محمد رمزي : القاموس الجغرافي للبلاد المصرية من عهد قدماء المصريين إلى سنة ١٩٤٥ م ، الهيئة العامة المصرية للكتاب ١٩٩٥م ق٢ جـ ١ ص ٢٣.

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ١ ص ١٤٠، ابن أيبك الدواداري : المصدر السابق جـ ٧ ص ٢٦ ، ٢٧، وانظر : علي الصلابي : الدولة الزنكية ص ٥٦١ .

(٤) ابن واصل : المصدر السابق جـ ١ ص ١٣٨ ، ١٣٩ .

ولم تنجح محاولات السلطان نور الدين محمود في منع الصليبيين من السير نحو مصر ، حيث إنه سار إلى طرف بلادهم ليمنعهم من السير ، ولكنهم تركوا حامية عسكرية لحفظها من نور الدين ؛ لعلمهم أن الخطر الأكبر يكمن في استيلاء أسد الدين على مصر ، وعندما وصل الجيش الصليبي إلى مصر كان أسد الدين شيركوه قد تحصن هو وعسكره في بلبيس ، وقد أظهر أسد الدين وعساكره في ذلك الموقف بطولة تفوق الوصف ؛ حيث إنه على الرغم من اجتماع العساكر المصرية والصليبية ، وعلى الرغم من أن أسوار المدينة كانت من الطين وليس لها خندق يحميها إلا أنهم صمدوا للحصار مدة ثلاثة أشهر، دافع أسد الدين شيركوه وعساكره خلالها عن مواقعهم دفاعًا شديدًا ، بل أنه لم يكتف بالدفاع بل جدَّ في قتالهم بكرة وعشية ، فلم يتمكنوا من الاستيلاء عليها [(١)].

وفجأة قرَّر عموري الأول الدخول في مفاوضات الصلح مع أسد الدين وتسليم ما أخذه من البلاد للمصريين ، وذلك عندما جاءته الأنباء بتعرُّض بعض المعاقل الصليبية في الشام لضغط من السلطان نور الدين محمود، ففضَّل العودة للدفاع عنها، فوافق أسد الدين شيركوه على تلك الشروط ؛ لقلة المؤن لديه ، فضلاً عن صعوبة مقاومة الصليبيين والمصريين في آن واحد على الرغم من صموده تلك الفترة ، وفعلاً تمّ الاتفاق بين عموري الأول وأسد الدين على الخروج من مصر في شهر ذي الحجة (٥٥٩هـ/ ١١٦٤م) ، فعاد أسد الدين وجيشه إلى بلاد الشام [(٢)].

وفي سنة (٥٦٢هـ/١١٦٧م) أرسل نور الدين محمود حملته الثانية إلى مصر بقيادة أسد الدين شيركوه كما أرسل معه أخيه صلاح الدين ، ومجموعة من الأمراء

(١) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ١ ص ١٤٠ ، الصلابي : الدولة الزنكية ص ٥٦٢.

(٢) ابن واصل : المصدر السابق جـ ١ ص ١٤٠ ، ابن أيبك الدواداري : كنز الدرر وجامع الغرر جـ ٧ ص ٢٧، الصلابي : المرجع السابق ص ٥٦٣.

، مع المماليك الأسدية فبلغ عدد جيشه ألفي فارس [١] ، وكان استنجاد الخليفة العاضد[٢] بنور الدين من استبداد شاور وجوره ، هو السبب الرئيس الذي دفع السلطان نور الدين محمود لتسيير تلك الحملة إلى مصر [٣] ، هذا بالإضافة إلى غدر شاور وحنثه بوعده ورجوعه عن اتفاقه مع نور الدين[٤].

فسار أسد الدين وجد في السير ، فوصل إلى الديار المصرية وقصد أطفيح ، وعبر النيل منها إلى الجانب الغربي ، ونزل بالجيزة ، واستولى على الغربية ، وأقام بها نيفاً وخمسين يومًا [٥].

الأمر الذي أدي إلى قيام شاور بالاستعانة بالصليبيين لمواجهة أسد الدين شيركوه وقواته ، فلما وصل الصليبيون إلى مصر عبروا إلى الجانب الغربي ، وكان أسد الدين وجيشه قد اتجهوا إلى الصعيد حتى وصلوا مكاناً يعرف بالبابين ، وسارت

---

(١) ابن واصل : المصدر السابق جـ ١ ص ١٤٨، أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر ، تحقيق / محمد زينهم محمد عزب وآخر ، دار المعارف –القاهرة ١٩٩٩م جـ ٣ ص ٥٧.

(٢) الخليفة أبو محمد عبد الله العاضد بالله ابن الأمير يوسف ابن الخليفة الحافظ بالله ولد سنة (٥٤٤هـ/١١٤٩م) وقيل سنة(٥٤٠هـ/١١٤٥م) ومات في يوم عاشوراء سنة (٥٦٧هـ/١١٧١م) . ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة جـ ٥ ، ص ٣١٩– ٣٤٠ .

(٣) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ ٥ ص٣٣١، عاشور:الأيوبيون والمماليك ص ١٤،١٥.

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ١ ص ١٤٨.

(٥) أبو شامة : الروضتين جـ٢ ص ٧ ، ابن واصل : المصدر السابق جـ ١ ص ١٤٨، الذهبي: تاريخ الإسلام جـ ٣٩ ص ٨ ، العبر في خبر من غبر تحقيق /أبو هاجر محمد السعيد بسيوني زغلول دار الكتب العلمية – بيروت ١٩٨٥م جـ ٣ ص ٣٦، اليافعي : مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان ، تحقيق / خليل المنصور ، دار الكتب العلمية – بيروت ١٩٩٧م جـ ٣ ص ٢٧٧.

العساكر المصرية والصليبية خلفهم ، فاستشار أسد الدين فرسانه خوفاً من أن تضعف نفوسهم عن الثبات لقلة عددهم وبعدهم عن بلادهم ، فأشاروا بالعودة إلى بلاد الشام في بداية الأمر ، إلا أن شرف الدين بزغش أحد المماليك النورية الشجعان قال : " من يخاف القتل والجراح والأسر فلا يخدم الملوك ، بل يكون فلاحاً أو مع النساء في بيته " ، ووافقه أسد الدين على رأيه حيث كان عازماً على قتالهم ولقائهم ، وأن تحكم السيوف بينه وبينهم ، وتبعه صلاح الدين ثم كثر الموافقون على القتال ، واجتمعت الكلمة على اللقاء ، ووضع أسد الدين شيركوه خطة محكمة استطاع من خلالها أن ينتصر في هذه المعركة على الرغم من قلة عدد جيشه [١].

ومما لا شك فيه أن نجاح أسد الدين في تنفيذ خطته كان بمساعدة الشجعان من أمرائه وعسكره من النورية والأسدية وغيرهم من الذين يثق بهم ويعرف صبرهم وشجاعتهم ، وقد ذكر أبو شامة بعد حديثه عن تلك المعركة : " وكان هذا من أعجب ما يؤرخ ، أن ألفي فارس تهزم عساكر مصر وفرنج الساحل " [٢].

ثم سار أسد الدين إلى ثغر الإسكندرية وجبى ما في طريقها من القرى والسَّواد من الأموال ، ووصل إلى الإسكندرية فتسلَّمها من غير قتال ؛ فاستناب بها صلاح الدَّين ابن أخيه، وعاد إلى الصَّعيد وتملَّكه وجبى أمواله وأقام به حتى شهر رمضان من سنة (٥٦٢هـ/١١٦٧م) ، وأما المصريون والصليبيون فإنهم عادوا إلى القاهرة وجمعوا أصحابهم وحشدوا الجيوش ، وساروا إلى الإسكندرية – وبها صلاح الدين ومعه حامية عسكرية ، بالإضافة إلى المتطوعين من الأهالي فاشتد الحصار وقَلَّ الطعام بالبلد ، ولما علم أسد الدين بذلك سار من الصعيد نحوهم[٣] .

(١) أبو شامة : الروضتين جـ٢ ص ٧ ، ابن واصل : مفرج الكروب جـ ١ ص ١٥٠ ، ١٥١.
(٢) أبو شامة : المصدر السابق جـ٢ ص ٨ ، ٩.
(٣) المصدر نفسه جـ٢ ص ٩.

ثم أرسل شاور والصليبيون رسلهم إلى أسد الدين يطلبون الصلح ، وعرضوا عليه خمسين ألف دينار بالإضافة إلى ما جباه من الأموال من البلاد المصرية ، فوافق على ذلك شريطة أن لا يقيم الصليبيون في مصر ولا يتسلمون منها قرية واحدة ، فوافقوا على ذلك ، وتم الصلح ، وعاد أسد الدين وجيشه إلى الشام فوصل في الثامن عشر ذي القعدة سنة (٥٦٢/١١٦٧م) [١].

وفي سنة (٥٦٤هـ/١١٦٩م) كانت حملة أسد الدين شيركوه الثالثة على مصر؛ وكان سببها أن الصليبيين لما رأوا ضعف مصر طمعوا فيها ، ونقضوا الاتفاق الذي تم بينهم وبين أسد الدين ، وأعدوا حملة للاستيلاء عليها ، ثم ساروا إليها فوصلوا إلى مدينة بلبيس فملكوها ونهبوها وأسروا وسبوا ، ثم ساروا إلى القاهرة فاستولوا عليها وسبوا وأسروا ونهبوا ، وأمر شاور بإحراق مصر ، وأرسل إلى عموري يطلب منه الصلح ، على أن يدفع له ألف ألف دينار[٢].

وكان الخليفة العاضد قد أرسل إلى السلطان نور الدين محمود زنكي يطلب منه المساعدة على أن يعطيه ثلث البلاد ، وأن يكون أسد الدين شيركوه مقيماً عنده في عسكره ، ويكون إقطاعهم خارجاً عن الثلث ، فأرسل السلطان نور الدين في استدعاء أسد الدين شيركوه من حمص وأمره بالتجهز للسير نحو مصر ، فقدم بمماليكه الأسدية واختار ألفي فارس من العسكر وستة آلاف من التركمان ، وسار معه ابن أخيه صلاح الدين ومجموعة من الأمراء فلما قرب من مصر رحل الصليبيون عنها ، ووصلها في ربيع الآخر من سنة (٥٦٤هـ/١١٦٩م) واجتمع

(١) أبو شامة : الروضتين جـ٢ ص ٩.

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ١ ص ١٥٥- ١٥٨ .

أسد الدين شيركوه بالخليفة العاضد ، وخلع عليه ، وأجرى على عساكره الجرايات الكثيرة ، وفرح به أهل مصر[١] .

وأما شاور فشرع في مماطلة أسد الدين شيركوه فيما وعد به من المال، ورواتب الجند، فاتفق صلاح الدين مع بعض المماليك النورية على قتله ، فقبضوا عليه ، وسمع العاضد بذلك فأرسل إلى شيركوه يطلب رأسه، وأذن أسد الدين بقتله فقُتل، وأرسل رأسه إلى العاضد[٢].

ثم خلع الخليفة العاضد على أسد الدين شيركوه خلع الوزارة ونعته بالملك المنصور أبي الجيوش ، واستتبت له الأحوال في مصر بعد قضائه على المناوئين والمعارضين [٣] وبعد ذلك أقطع أسد الدين شيركوه البلاد المصرية للعساكر التي جاءت معه [٤].

ولم يلبث أسد الدين أن مرض واعتراه خانوق عظيم فقتله حيث إنه كان كثير الأكل تتواتر عليه التخم والخوانيق ، وينجو منها بصعوبة [٥]، وقيل إنه توفى فجأة بعد شهرين وخمسة أيام من توليه الوزارة ، وكان ذلك في شهر جمادى الآخرة من سنة (٥٦٤هـ / ١١٦٩م) [٦].

---

(١) أبو شامة : المصدر السابق جـ٢ ص ٣٢-٣٩، ابن واصل : المصدر السابق جـ١ ص١٥٥-١٦١.

(٢) أبو شامة : الروضتين في أخبار الدولتين جـ٢ ص ٣٨،٣٩ ، ابن واصل : مفرج الكروب جـ١ ص ١٦١- ١٦٣.

(٣) ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات تحقيق / حسن الشماع ، جامعة البصرة ١٩٧٠م جـ ٤ ق ١ ، ص ٣٤.

(٤) ابن واصل : المصدر السابق جـ١ ص ١٦٥.

(٥) المصدر نفسه جـ ١ ص ١٦٧ ، ١٦٨ .

(٦) أبو شامة : الروضتين في أخبار الدولتين جـ٢ ص٤٧ .

الفصل الأول

دور المماليك الأسدية في عهد صلاح الدين

تنوعت أدوار المماليك الأسدية في عهد صلاح الدين الأيوبي ، وقد برزت أدوارهم بعد وفاة أسد الدين شيركوه مباشرةً ، حيث كان لهم أثر كبير في تولي صلاح الدين الوزارة ، كما شكلوا جزءًا مهمًا من المؤسسة العسكرية الأيوبية ، وشاركوا في حروب صلاح الدين ، كما استعان بعدد منهم في الأعمال الإدارية .

موقف المماليك الأسدية من تولي صلاح الدين الوزارة :

بعد وفاة أسد الدين شيركوه شهد منصب وزارة مصر نزاعًا بين ثلاث قوى وهم رجال قصر العاضد من جهة ، وكبار القواد الذين أرسلهم نور الدين مع أسد الدين في بداية الحملة الثالثة من جهة ثانية ، ثم الأسرة الأيوبية من جهة ثالثة ، وقد أصبح صلاح الدين الممثل البارز للأسرة الأيوبية في مصر بعد وفاة عمه شيركوه [١].

وكان صلاح الدين الأيوبي هو الساعد الأيمن لعمه أسد الدين شيركوه ، حتى أنه عندما تولى أسد الدين الوزارة وانتظمت له الأمور ؛ أصبح صلاح الدين مباشر الأمور ومقرر لها ، وكان بيده زمام الأمر والنهي ، لأنه أظهر كفاءة عالية وحسن اقتدار خلال صحبته لعمه أثناء حملاته على مصر[٢] ؛ لذا كان من الطبيعي أن يكون مرشحاً لخلافته في منصب الوزارة بعد وفاته .

وكان المماليك الأسدية من بين العوامل المهمة التي رجحت كفة صلاح الدين في تولي الوزارة ؛ حيث إنهم انحازوا إلى جانبه ، ورغبوا في أن تكون الوزارة له ،

---

(١) علي بيومي : قيام الدولة الأيوبية في مصر دار الفكر الحديث للطبع والنشر – القاهرة ١٩٥٢م ص ١٤٨ ، ١٥٠ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ١ ص ١٦٧ ، ١٦٨ .

وتلك قوة كان لها ولا شك أثرها البارز في إتمام ذلك الاختيار[١] كما كان لهم دور كبير في القضاء على المناوئين والمعارضين لصلاح الدين ، وذلك عندما أيقظت خلافة أسد الدين شيركوه في منصبه الكثير من الخلافات في المعسكر الشامي ،حيث كان هناك الكثير من القواد الطامعين في منصب الوزارة من أمثال : الأمير شهاب الدين الحارمي خال صلاح الدين ، وعين الدولة الياروقي ، وأخاه الأمير بهاء الدولة ، والأمير قطب الدين خسرو بن تليل ، والأمير سيف الدين علي بن أحمد الهكاري[٢] واجتمع رأي الأسدية على صلاح الدين وطلبوا له الوزارة ، على الرغم من أن بعض أمراء المعسكر الشامي مال إلى توليتها لشهاب الدين محمود الحارمي خال صلاح الدين ، وفي نهاية الأمر وقع اختيار الخليفة العاضد على صلاح الدين لاعتلاء منصب الوزارة خَلَفًا لعمه أسد الدين ؛ خاصة وأن الخليفة العاضد كان معجباً بعقلية صلاح الدين وسداد رأيه وشجاعته [٣].

وهناك رأي يذكر: أن بعض حاشية الخليفة العاضد أشاروا عليه بتولية صلاح الدين لضعفه ولأنه كان أصغر الأمراء سنًّا ، بحيث يكون أكثر طواعية له ولا يجسر على مخالفته ، وكان عمر صلاح الدين آنذاك اثنتين وثلاثين سنة، ولقَّبَه الخليفة الفاطمي العاضد بالملك الناصر وذلك في الخامس والعشرين من جمادى الآخرة سنة (٥٦٤هـ/ ١١٦٩م) [٤].

---

(١) علي بيومي : قيام الدولة الأيوبية في ص ١٥٠.

(٢) المقريزي : إتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ، تحقيق / محمد حلمي محمد أحمد مؤسسة الأهرام – القاهرة ١٩٩٦م ، جـ٣ ص ٣٠٨ .

(٣) أبو شامة : الروضتين في أخبار الدولتين جـ ٢ ص ٧٥ ، ٧٦.

(٤) المصدر نفسه جـ ٢ ص ٤٨ ، الذهبي : تاريخ الإسلام جـ ٣٩ ص ١٩، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ١٥، ١٦ .

ومن الجدير بالذكر ذلك الدور المهم الذي قام به الفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري ، الذي ذكر عنه ابن الأثير: أنه كان من أعيان الأسدية على الرغم من أنه لم يكن مملوكًا إلا أنه نسب إلى أسد الدين شيركوه [1] وذلك عندما ابتعد معظم كبار الأمراء النورية الذين قدموا في حملة أسد الدين الثالثة عن صلاح الدين ولم يخدموه ولا اهتموا بأمره عندما تولى الوزارة ؛ بسبب عدم موافقتهم لتوليه الوزارة التي كان يرغب كل منهم في توليها لنفسه ، ما عدا ضياء الدين الهكاري الذي ظل في خدمته ، وشرع في التوفيق بينه وبين كبار الأمراء ، ونجح مع بعضهم في تلك المهمة ، وفي هذا الصدد يذكر ابن واصل : " فلم يلتفت إليه أولئك الأمراء ولاخدموه ، فقام بأمره الفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري ، وأمال إليه ابن المشطوب ، ثم قال لشهاب الدين الحارمي : "هذا هو ابن أختك وملكه بك ولم يزل به حتى حلفه له ، ثم أتى قطب الدين ، وقال : إن صلاح الدين قد أطاعه الناس ، ولم يبق غيرك وغير عين الدولة ، وعلى كل حال فالجامع بينك وبين صلاح الدين أن أصله من الأكراد فلا يخرج الأمر عنه إلى الأتراك ، ووعده بزيادة إقطاعه ، فأجاب وحَلَف ، ثم ذهب ضياء الدين واجتمع بعين الدولة الياروقي ، وكان أكبر الجماعة وأكثرهم

(١) الفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري ، من قدماء الأسدية ، وكان فقيهًا جنديًا شجاعًا كريمًا اتصل بأسد الدين شيركوه ، فصار له إمامًا ، فرأى من شجاعته ما جعل له إقطاعًا ، وتقدم عند صلاح الدين تقدمًا عظيمًا ، وأصبح من أمراء عسكره ، توفي بالخروبة بالقرب من عكا في ذي القعدة سنة (٥٨٥هـ/١١٨٩م) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، تصحيح ومراجعة / محمد يوسف الدقاق ، دار الكتب العلمية – بيروت ٢٠٠٣م جـ ١٠ ص ٨٦ ، ١٩٠ ، ابن كثير : البداية والنهاية جـ ١٦ ص ٦١١ ، وانظر أيضاً : عبد الرحمن زكي : الجيش المصري في العصر الإسلامي ص ٨٢ .

جمعاً ، فلم تنفع رقاه ، وقال : لا أخدم يوسف أبدا ، وعاد إلى نور الدين ومعه غيره " [١] .

وكان مما ساعد على تقوية موقف صلاح الدين اعتراف نور الدين به قائدًا أعلى لقواته في مصر بالإضافة إلى كونه وزيرًا [٢] .

بعد ذلك أخذ صلاح الدين يقوي مركزه في مصر، ويعمل على اكتساب محبة أهلها ، حيث إنه تمتع بالعديد من المواهب والخبرات التي اكتسبها من أبيه نجم الدين وعمه أسد الدين شيركوه ، ولا شك أن ارتباطه الوثيق بعمه أسد الدين شيركوه في تنفيذ مخططاته قد أفاده في العمل بشكل سليم ، بالإضافة إلى اكتسابه المهارة في العمل السياسي وبعد النظر من أبيه وعمه [٣] .

وفي عام (٥٦٧هـ/١١٧١م) قام صلاح الدين – بأمر من نور الدين محمود– بقطع الخطبة للخليفة الفاطمي العاضد ، وإقامة الخطبة للخليفة العباسي المستضيء بأمر الله[٤] .

ولم تكد تمضي أيامٌ على قطع الخطبة للفاطميين حتى توفي الخليفة العاضد آخر الخلفاء الفاطميين ، ليلة العاشر من المحرم من نفس السنة [١]. لتبدأ

---

(١) مفرج الكروب جـ ١ص ١٦٩–١٧٠، وانظر: الذهبي : تاريخ الإسلام جـ ٣٩ ص ١٩، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ١٦، ابن سباط : صدق الأخبار المعروف بتاريخ ابن سباط ، تحقيق /عمر عبد السلام تدمري، جروس برس– طرابلس ١٩٩٣م جـ ١ ص ١٢٣.

(٢) ألبير شاندور: صلاح الدين الأيوبي البطل الأنقى في الإسلام ، ترجمة : سعيد أبو الحسن ، طلاس للدراسات والترجمة والنشر – دمشق ١٩٩٣ م ص٨١.

(٣) Stevenson : The Crusaders in East–Cambridge university 1907–P205

(٤) الخليفة المستضيء بأمر الله أبو محمد الحسن بن يوسف المستنجد بن المقتفي محمد العباسي الهاشمي ، توفي ببغداد في ثاني ذي القعدة سنة (٥٧٥هـ/١١٨٠م) عن ست وثلاثين سنة ، ابن تغري بردي : المصدر السابق جـ ٦ ص ٧٨. .

مرحلة الدولة الأيوبية وتقوم مصر في عصرها بدور محوري مهم في توحيد الصف الإسلامي ومواجهة الخطر الصليبي .

انضمام المماليك الأسدية إلى جيش صلاح الدين

بعد أن انتهى عصر الدولة الفاطمية عمل صلاح الدين على تكوين قوة عسكرية تكون بديلةً عن الجيش الفاطمي ، وفي ذلك يذكر المقريزي : " فلما زالت دولتهم على يد السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب، أزال جند مصر من العبيد السود والأمراء المصريين والعربان والأرمن، وغيرهم واستجدّ عسكرا من الأكراد والأتراك خاصة، وبلغت عدّة عساكره بمصر اثني عشر ألف فارس " (٢).

فقد أراد صلاح الدين تعزيز قوته في مصر ؛ ليكون قادرًا على مواجهة الصليبيين ، خاصةً وأن الجيش الفاطمي لم يكن من المتوقع أن يكون مواليًا لنظام صلاح الدين الجديد ؛ لذا فقد سعى صلاح الدين لتكوين جيش كان نواته القوة العسكرية التي جلبها أسد الدين شيركوه إلى مصر(٣) .

وقد ذكر صلاح الدين الأسباب التي دعته إلى تكوين الجيش الأيوبي والتخلص من الجيش الفاطمي في الرسالة التي أرسلها للخليفة العباسي المستضيء بنور الله في سنة (٥٧٠هـ/١١٧٥م) ومنها : " ودخلنا البلاد وبها أجناد عددهم كثير وسوادهم كبير ، وكلمتهم جامعة وهم على حرب الإسلام أقدر

---

(١) أبو شامة : الروضتين في أخبار الدولتين جـ ٢ ص ١٢٣ .

(٢) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بخطط المقريزي ، دار الكتب العلمية- بيروت ١٩٩٨م جـ ١ ص ١٧٧ ، ١٧٨.

(٣) David Nicolle: Saladin Leadership – Strategy – Conflict published by Osprey Publishing Midland Oxford-UK 2011 P 13

منه على حرب الكفر" [١] ، ومنها : " فشرعنا في تلك الطوائف من الأجناد والسودان والأرمن فأخرجناهم من القاهرة "[٢] .

ومن المعروف أن فرقة المماليك الأسدية فرقة عسكرية ، فكان من الطبيعي أن يستمروا في ممارسة عملهم العسكري ، فانضموا إلى جيش صلاح الدين مع بقية الجيش النوري المكون من ثمانية آلاف جندي والذي شارك في الحملة الثالثة بقيادة أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين ، وكان بمثابة النواة الحقيقية للجيش المصري في العصر الأيوبي ، وقد كون الأسدية جزءًا مهمًا فيه خاصة بعد أن قربهم صلاح الدين ، وكانوا يعدون من ضمن أهم قوات السلطان صلاح الدين الثابتة ، كما كانوا يقومون بأهم الأعمال الحربية والغزوات تحت قيادة مجموعة من الأمراء الذين أُطلق عليهم مقدمو المماليك السلطانية" [٣].

وهذه الفرقة العسكرية أنجبت أمراء وقادة كبار من أمثال: بهاء الدين قراقوش وجاولي الأسدي ، وابنه حسام الدين تمرتاش ، وسيف الدين يازكوج ، وأرسلان بغا وعز الدين أرسل وسنقر الوشاقي الأسدي ، وغيرهم [٤] وقد اضطلع كبار هؤلاء الأمراء بمهام عظيمة في الجوانب الحربية والسياسية والإدارية.

وقد قام صلاح الدين الأيوبي بإرسال قادة المماليك النورية إلى الشام وكون منهم نواة الجيش الشامي[٥] على الرغم من أن بعضهم عاد إلى الشام لعدم رضاه

(١) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ص ٢٦.

(٢) المصدر نفسه جـ ٢ ص ٢٧.

(٣) عبد الرحمن زكي : الجيش المصري في العصر الإسلامي ص ٨٢.

(٤) محسن محمد حسين: الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين ص ٦٢ .

(٥) محسن محمد حسين: الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين ص ٦٩.

عن تعيين صلاح الدين وزيرًا في مصر مثل : الأمير عين الدين الياروقي حيث قال: "لا أخدم يوسف أبدا ، وعاد إلى نور الدين ومعه غيره " [١].

ثم عمل صلاح الدين على تكوين فرقة من المماليك عرفت بالصلاحية أو الناصرية ، ومن الأسدية والصلاحية تكونت نواة الجيش الأيوبي الحقيقي ، والذي يعنينا في هذا الأمر هم المماليك الأسدية – موضوع الدراسة –الذين أغدق عليهم صلاح الدين الإقطاعات المختلفة ليضمن ولاءهم فخاضوا معه المعارك وظلوا على ولائهم وإخلاصهم له طيلة حياته [٢] .

وتجدر الإشارة إلى أن صلاح الدين سار على نهج من سبقه من السلاجقة والزنكيين في سياسة النظام الإقطاعي [٣]، وكان للمماليك للأسدية إقطاعاتهم الثابتة التي كان يمنحها لهم السلطان ، بالإضافة إلى ذلك فقد كان السلطان يزيد في تلك الإقطاعات لبعضهم تبعًا لمدى الإخلاص والوفاء ؛ يدل على ذلك ما ذكره المقريزي: " أن السلطان أعطى ما كان للدواية[٤] من إقطاع وضياع للفقيه عيسى

(١) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ١ ص ١٧٠.

(٢) نجوى كمال كيرة : الجواري والغلمان في مصر ص ٣٥١ ، ٣٥٢.

(٣) نظير حسان سعداوي : جيش مصر في أيام صلاح الدين ، مكتبة النهضة المصرية – القاهرة ١٩٥٦م ص ٢٠١ ، فوزي خالد الطواهية : الإقطاع العسكري في بلاد الشام في العصر الأيوبي ، بحث منشور في المجلة الأردنية في التاريخ والآثار ، قسم التاريخ ، كلية الآداب – الجامعة الأردنية ، مجلد ٦ عدد ٣ ٢٠١٢م ص ٤.

(٤) الداوية : فرقة في أول الجيش وهي الفدائية ، والداوية يطلقها الفرنجة على الطائفة الدموية وهم فرسان المعبد Templin وهي جمعية دينية أنشئت أول الأمر لحماية طريق الحجاج المسيحيين بين يافا وبيت المقدس ثم تحولت إلى هيئة حربية . محمد دهمان : معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي ، دار الفكر – دمشق ١٩٩٠م ص ٧٣.

الهكاري بعد فتح عكا سنة (٥٨٣هـ/١١٨٧م) "[١] ؛ تأديبًا لهم لانضمامهم إلى أرناط والملك جان جي لوزجان في الحرب ضد المسلمين[٢] .

وعند وفاة أحد المماليك الأسدية كانت تلك الإقطاعات تؤول إلى غيره من المماليك الأسدية في الغالب ، وقد ذكر المقريزي ما يدل على ذلك : " أنه عندما مات منكورس الأسدي أحد أمراء المماليك الأسدية أخذ إقطاعه يازكوج الأسدي" [٣].

وعلى الرغم من ذلك فقد كان بعض الإقطاعات الخاصة بالأسدية تؤول للسلطان يعطيها من يشاء مثل ما حدث عندما مات بهاء الدين قراقوش[٤] فتسلم السلطان العادل[٥] داره بما حوته من الذخائر ، وأعطى إقطاعاته للملك الكامل[١].

---

(١) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ، تحقيق / محمد عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية – بيروت ١٩٩٧م جـ ١ ص ٢٠٩.

(٢) أحمد الشامي : صلاح الدين والصليبيون (تاريخ الدولة الأيوبية) ، مكتبة النهضة العربية –القاهرة ١٩٩١م ص ١٣٢.

(٣) السلوك جـ ١ ص ١٨٧. وهو الأمير سيف الدين يازكوج الأسدي من كبار المماليك الأسدية، توفي بمصر سنة (٥٩٩هـ/ ١٢٠٣م) انظر: أبو شامة : تراجم رجال القرنين السادس والسابع المعروف بالذيل على الروضتين ، تعليق/ إبراهيم شمس الدين ، دار الكتب العلمية – بيروت ٢٠٠٢م ص٥٢، وقد ذكره ابن الأثير باسم " أيازكوش" انظر : الكامل جـ ١٠ ص ٢٠٤ ، وكذلك المقريزي انظر: المصدر السابق جـ ١ ص ١٩٢ ، وذكره العيني :باسم " يزكج" انظر : عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان (العصر الأيوبي) تحقيق /محمود رزق محمود دار الكتب – القاهرة ٢٠١٠م جـ ٢ ص ١٥، وذكره ابن تغري بردي باسم " يازكوج"، " أزكش " انظر : النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٢٦ ، ١١٨.

(٤) قراقوش بن عبد الله الأسدي ، الملقب ببهاء الدين كان خادم أسد الدين شيركوه عم صلاح الدين ، ثم من بعده خدم صلاح الدين وأولاده ، وكان رجلًا مسعودًا صاحب همة ، توفي في سنة (٥٩٧هـ/١٢٠١م) . ابن أيبك : كنز الدرر وجامع الغرر جـ ٧ ص ١٥١.

(٥) الملك العادل محمد بن أيوب بن شادي سيف الدين أبو بكر أخو صلاح الدين، ولد سنة

وكثيرًا ما نجد المصادر التاريخية تتحدث عن عساكر مصر في أثناء الحديث عن العديد من المعارك ، وقد ذكر بعض الباحثين : أن المؤرخين اختلفوا حول تسمية جنود صلاح الدين بعساكر مصر ، فمنهم من يرى أن العساكر الأسدية من بقايا أسد الدين شيركوه ومماليكه والصلاحية لقبوا بعساكر مصر ؛ حيث أنهم تمركزوا فيها وأقاموا بها ، وأنهم من الأتراك والأكراد وليسوا من أبناء مصر الأصليين ، ويرى فريق آخر: أن العساكر المصرية هم مصريون أصلاً وليسوا مماليك مشترون ، وأن صلاح الدين عندما قضى على الفاطميين جعل من المصريين ركيزة لجيوشه ، وأن عددهم وصل إلى مئات الألوف [٢] ، ويرجح بعض الباحثين الرأي الأول الذي يذكر أن المقصود بعساكر مصر هم المماليك الأسدية والصلاحية [٣].

ولكن الواقع أن الأسدية والصلاحية لم يكونوا جميع عساكر مصر فقد اعتمد صلاح الدين على قبائل عربية كانت تقطن مصر، وكان بعضهم ضمن الجيش الأيوبي بصفة جنود نظاميين والبعض الآخر بصفة جنود غير نظاميين [٤] والذي

(٥٣٩هـ/١١٤٤م) وقيل سنة (٥٤٠هـ/١١٤٥م) وتوفى سنة(٦١٥هـ/ ١٢١٨م) ابن تغري بردي: المصدر السابق جـ ٦ ص ١٤٥- ١٥٦ ، الحنبلي : شفاء القلوب ص ١٩٨-٢٢١.

(١) أبو شامة : الروضتين جـ ٤ ص ٢٨٦. الملك الكامل محمد بن الملك العادل أبى بكر محمد بن أيوب بن شادي ولد سنة (٥٧٦هـ / ١١٧٧م) تملك الدّيار المصرية تحت جناح والده عشرين سنة وبعده عشرين سنة ، ومات سنة (٦٣٥هـ / ١٢٣٧م) . ابن تغري بردي: المصدر السابق جـ ٦ ص ٢٠٠-٢٠٩ .

(٢) نجوى كمال كيرة : الجواري والغلمان في مصر ص ٣٥٣ ، ٣٥٤.

(٣) نجوى كمال كيرة : الجواري والغلمان في مصر ص ٣٥٣.

(٤) محسن محمد حسين : الجيش الأيوبي ص٦٣ ، ٦٤.

يؤكد ذلك ما أورده المقريزي في حوادث سنة (٥٦٧هـ/١١٧١م) حيث ذكر : "وفيها عرض السلطان العربان الجذاميين وكانت عدتهم سبعة آلاف فارس فاستقرت على ألف وثلاثمائة فارس لا غير"(١).

ويفهم من روايات المؤرخين أن السلطان صلاح الدين صارت لديه قوتان قوة مصرية كاحتياطي لجيش الشام يستخدمها أو يستخدم بعضها لدى الحاجة الشديدة إليها، وللدفاع عن مصر ضد أي عدوان خارجي محتمل ، ثم قوة أخرى تحت تصرفه المباشر وهي التي ترافقه في تحركاته (٢).

والواقع أن الجيش الأيوبي المصري شارك في جميع حروب صلاح الدين ، فكثيرًا ما نجد الروايات التاريخية تشير إلى مشاركة الجيش المصري في الحروب أو إلى استدعاء الجيش المصري للمشاركة في المعارك ، أو وصول الجيش المصري أو جماعة منه ، وسيأتي ذكر ذلك عند الحديث عن دور الأسدية في الحروب .

كما أن روايات المؤرخين تؤكد اندماج المماليك الأسدية ضمن العسكر المصري ، فقد أورد العماد الكاتب أثناء الحملة الصليبية الثالثة في حوادث سنة (٥٨٧هـ/١١٩١م) ما يفيد وصول المماليك الأسدية ضمن العسكر المصري ، حيث ذكر: " وفي يوم الأربعاء ثاني جمادى الآخرة وصل جماعة من عسكر مصر والقاهرة بالعدة الوافرة والقوة الظاهرة مثل علم الدين كرجي الذي يسرع إلى لقاء أقرانه ولا يرجي ، وكسيف الدين سنقر الدوري ذي الزند الوري والسيف الروي

(١) السلوك جـ ١ ص ١٥٢.

(٢) محسن محمد حسين : الجيش الأيوبي ص٦٩.

وأمثالهما من المماليك الناصرية والمساعير الأسدية ، أسد العرين الشم العرانين الغر الميامين " [١] .

كما ذكر ابن واصل في حوادث سنة (٥٨٧هـ/١١٩١م) : " وفي ثاني جمادى الآخرة وصل ابن عز الدين مسعود صاحب الموصل في عسكره ، ووصل علم الدين كرجي ، وسيف الدين سنقر ، وغيرهما من الأمراء الأسدية في عساكر مصر " [٢].

دور المماليك الأسدية في حماية مصر من الأخطار الداخلية والخارجية

بعد أن تولى صلاح الدين الوزارة شرع في استمالة قلوب الناس إليه كما بذل لهم الكثير من الأموال التي جمعها عمه شيركوه ؛ فمال الناس إليه وأحبوه وسيطر على الجند سيطرة تامة، وكانت المهام التي أنجزها صلاح الدين في مصر عظيمة وضخمة ، فعندما استقر في منصب الوزارة في مصر استطاع أن يُحكِمَ قبضته على مقدرات الدولة ، وأن يعمل على إحداث تغيير جذري وشامل داخل مصر في كافة المجالات ، فقام بالعديد من الإصلاحات الإدارية والمالية ، الأمر الذي أدى إلى كثرة المؤامرات والدسائس التي حيكت ضده من قِبَل مؤيدي الدولة الفاطمية ، ولكنه استطاع إحباط تلك المؤامرات والتصدي للمشكلات التي أثارها مركزه كما استطاع أن يقضي على مراكز القوة في مصر [٣] .

ومن الأدوار التي شارك فيها الأسدية لحماية مصر من الأخطار الداخلية حربهم ضد الجند السودان في القصر الفاطمي الذين دبروا مؤامرة سنة

(١) حروب صلاح الدين وفتح بيت المقدس (الفتح القسي في الفتح القدسي) دار المنار – بيروت ٢٠٠٤م ص ١٦٩.

(٢) مفرج الكروب جـ ٢ ص٣٥٤.

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب جـ١ ص ١٧٤– ١٧٧ ، محمد سهيل طقوش : تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام وإقليم الجزيرة ،دار النفائس للطباعة والنشر–بيروت ١٩٩٩م ص٤٦ .

(٥٦٤هـ/١١٦٩م) بزعامة مؤتمن الخلافة جوهر أحد الأستاذين المحنكين بالقصر الفاطمي ، والذي كان متحكماً بالقصر ، ويتمتع بالنفوذ والسلطة ، حيث قام بالاتفاق مع بعض الجماعات التي فقدت نفوذها وامتيازاتها في ظل سطوة صلاح الدين الأيوبي ، فاتفقوا على مكاتبة الصليبيين ليدخلوا مصر حتى إذا خرج صلاح الدين لحربهم استطاعوا أن يقبضوا على من بقي من أتباعه بالقاهرة [١] .

وفي ذلك يذكر أبو شامة نقلا عن العماد الكاتب : " قال العماد: وشرع تصلاح الدين في نقض إقطاع المصريين، فقطع منهم الدابر من أجل من معه من العساكر، وكان بالقصر خصي يدعى بمؤتمن الخلافة [٢]، متحكم في القصر، فأجمع هو ومن معه على أن يكاتبوا الفرنج ويقبضوا على الأسدية والصلاحية، لأن صلاح الدين يخرج إلى الفرنج بمن معه، فيؤخذ مَن بقي من أصحابه بالقاهرة، ويُتبع من ورائهم ، فتكون عليهم الدائرة فكاتبوا الفرنج...." [٣] .

ولكن تم اكتشاف تلك المؤامرة ووقع الكتاب المرسل للصليبيين في يد صلاح الدين ، فدبر خطة للتخلص من مؤتمن الخلافة ، وأرسل إليه جماعة من أتباعه فقتلوه وأتوا إليه برأسه ، الأمر الذي أدي إلى ثورة السودان عبيد القصر وكانوا يزيدون عن خمسين ألفاً ، فأرسل إليهم صلاح الدين أبا الهيجاء السمين[٤] بالجيش الأيوبي وفيهم الأسدية ووقعت الحرب بين الفريقين ببين القصرين بالقاهرة

(١) ابن واصل : المصدر السابق جـ١ ص ١٧٤- ١٧٧ .

(٢) مؤتمن الخلافة جوهر، وهو خصي كان بقصر العاضد، إليه الحكم فيه، والتقدم على جميع من يحويه، قتل في أوائل ذي القعدة من سنة(٥٦٤هـ/١١٦٩م) ، ابن الأثير : الكامل في التاريخ جـ ١٠ ص ١٨.

(٣) الروضتين في أخبار الدولتين جـ٢ ص ٨٦ .

(٤) أبو الهيجاء السمين الكردي ، كان من أكابر أمراء صلاح الدين، كان نائباً على عكا، ثم القدس توفي سنة (٥٩٣هـ/١١٩٧م)، ابن كثير : البداية والنهاية جـ ١٦ ص ٦٧٨.

لمدة يومين اشتد فيها القتال وانتهى الأمر بهزيمتهم وعبورهم إلى الجيزة ، فعبر إليهم شمس الدين تورانشاه[١] بن أيوب ومعه فرقة من العسكر فأبادهم بالسيف ، ولم يبق منهم إلا الشريد ، وأمر صلاح الدين بتخريب محلة السودان ، وانتهي أمر السودان نهائيًا [٢].

كما شارك الأسدية في القضاء على مؤامرة كنز الدولة التي قامت في أسوان وقوص ضمن الجيش الذي أرسله صلاح الدين للقضاء عليهم سنة(٥٧٠هـ/ ١١٧٥م) تحت قيادة العادل – أخو صلاح الدين – ويعلل أبو شامة الحماس والقوة التي ظهرت من الجيش الأيوبي – الأسدية والصلاحية – في القضاء على تلك المؤامرة بخوفهم من ضياع نفوذهم وإقطاعاتهم التي حصلوا عليها في ظل صلاح الدين إذا نجحت مثل تلك المؤامرات ، حيث ذكر في هذا الصدد نقلاً عن ابن شداد: " الكنز إنسان مقدم من المصريين كان انتزح إلى أسوان فأقام بها، ولم يزل يدبّر أمره ويجمع السودان عليه ويُخيَّل لهم أنه يملك البلاد ويعيد الدولة المصرية ، وكان في قلوب القوم من المهاواة للمصريين ما تستصغر هذه الأفعال عنده ، فاجتمع عليه خلق كثير وجمع وافر من السودان، وقصد قوص وأعمالها، فانتهى خبره إلى صلاح الدين، فجرد له عسكرا عظيما شاكين في السلاح من الذين ذاقوا حلاوة ملك الديار المصرية وخافوا على فوت ذلك منهم ، وقدّم عليهم أخاه سيف الدين وسار بهم حتى أتى القوم ، فلقيهم بمصاف فكسرهم، وقتل منهم خلقا عظيما ، واستأصل شأفتهم، وأخمد ثائرتهم." [٣]، كما ذكر ابن كثير أن: " صلاح الدين جرد إليه طائفة

(١) الملك فخر الدين شمس الدولة تورانشاه بن أيوب أخو صلاح الدين ، مات بالإسكندرية سنة (٥٧٧هـ/١١٨١م) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٨٠ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب جـ١ ص ١٧٤– ١٧٧ .

(٣) الروضتين في أخبار الدولتين جـ ٢ ص ٢٢١

من الجيش المصري ، وأمر عليهم أخاه الملك العادل سيف الدين أبابكر الكردي ، فلما التقيا هزمه أبوبكر وأسر أهله وقتله "[١] .

وهكذا استطاع صلاح الدين بهذا الجيش أن يقطع دابر الفتن الداخلية ، وأن يقضي على شراذم البغي والعدوان، ومدبري المكائد والمؤامرات [٢].

وكان للأسدية دور في حماية مصر من الأخطار الخارجية عندما نجح الجيش الأيوبي في صد الهجوم الصليبي على دمياط في أول صفر سنة(٥٦٥هـ/١١٧٠م) حيث إنهم حاصروها حصارًا شديدًا ، فأرسل إليها صلاح الدين العساكر في النيل ، وجمع فيها كل من عنده من فرق العسكر، وزودهم بالمؤن والسلاح ، وأرسل إلى السلطان نور الدين محمود يعرفه بحقيقة الأوضاع ويوضح له سوء الموقف ، فقام السلطان نور الدين بإرسال الإمدادات من الرجال والمؤن ، كلما تجهزت طائفة أرسلها ؛ فسارت إليه يتلو بعضها بعضاً ، ثم سار السلطان نور الدين بالجيش الزنكي فدخل بلاد الصليبيين فنهبها ، وأغار عليها واستباحها، لخلو البلاد من الحاميات العسكرية، فلما رأى الصليبيون كثرة الإمدادات إلى مصر وهجوم السلطان نور الدين على بلادهم ، قرروا الانسحاب بعد أن استمر الحصار لمدة خمسين يومًا عانى فيه أهل مدينة دمياط من الضيق والإرهاق[٣] وكان رحيلهم في الحادي والعشرين من ربيع الأول سنة (٥٦٥هـ/١١٧٠م)[٤] .

(١) البداية والنهاية جـ ١٦ ص ٥٠٠.

(٢) علي محمد الصَّلاَّبي: صلاح الدين الأيوبي وجهوده في القضاء على الدولة الفاطمية وتحرير بيت المقدس ،دار المعرفة – بيروت ٢٠٠٨م ص ٢١٣ .

(٣) أبو شامة : الروضتين جـ١ ص ٩٢،٩٣ ،ابن واصل :مفرج الكروب جـ١ ص ١٧٩-١٨٢.

(٤) ابن واصل :المصدر السابق جـ١ ص ١٨٣.

كما شارك الأسدية في صد الهجوم الصقلي على الإسكندرية في السادس والعشرين من ذي الحجة سنة (٥٦٩هـ/١١٧٣م) ، وكان صلاح الدين حينذاك نازلاً بعسكره في فاقوس ، فلما وصل إليه الخبر أرسل العسكر إلى ثغري الإسكندرية ودمياط ، على الرغم من أن دمياط لم يحدث عليها أي هجوم ، ولكن ذلك الإجراء من صلاح الدين كان من قبيل الإجراءات الاحترازية ، واستمر القتال إلى أن انتهى الأمر بفرار من بقي على قيد الحياة من الصقليين ، وأقلع الأسطول عن الإسكندرية يوم الخميس مستهل المحرم من سنة (٥٧٠هـ/١١٧٤م)[١].

دور المماليك الأسدية في توحيد الجبهة الإسلامية

كان من الطبيعي أن يقوم الأسدية بدور مهم في توحيد الجبهة الإسلامية لأنهم – كما سبق ذكره – كانوا يشكلون فرقة مهمة في جيش صلاح الدين ؛ لذا فقد خاضوا معه المعارك الكثيرة التي كان يهدف منها توحيد الجبهة الإسلامية من أجل وحدة صف المسلمين للوقوف في وجه الأخطار الصليبية بعد وفاة نور الدين محمود زنكي ، وقد استغرق هذا العمل الشاق والمضني من أجل توحيد الجبهة الإسلامية أكثر من عشر سنوات خلال الفترة من سنة (٥٧٠هـ / ١١٧٤م)إلى سنة (٥٨٢هـ / ١١٨٦م) لم يدخر فيها صلاح الدين وقتًا ولا جهدًا من أجل وحدة الصف الإسلامي .

ومما لا شك فيه أن وفاة السلطان نور الدين محمود زنكي في الحادي عشر من شوال سنة (٥٦٩هـ/ ١١٧٣م) كان نقطة تحول كبرى في حياة صلاح الدين الأيوبي ، حيث إنها كانت فرصة لإزالة الصعوبات التي كان من الممكن أن تواجه صلاح الدين الأيوبي عندما ظهرت الوحشة بينه وبين السلطان نور الدين محمود ، كما أن وفاة السلطان نور الدين أثارت مشكلة كبيرة في تقسيم دولته الواسعة بين

(١) المصدر نفسه جـ٢ ص ١١ – ١٦.

ورثته ؛ الأمر الذي هدد الوحدة الإسلامية ، حيث أنه لم يترك سوى ابنٍ طفلٍ في الحادية عشرة من عمره اسمه إسماعيل ، وهو الذي اتفق الأمراء على توليته ، كما قام كبار الأمراء بتعيين الأمير شمس الدين بن المقدم أتابكًا للعسكر [١].

كما أن سيف الدين غازي [٢] استولى على جميع البلاد الجزيرية ما عدا قلعة جعبر[٣] ورأس العين [٤].

وانتهز الصليبيون الفرصة وقاموا بمهاجمة قلعة بانياس ، وعلى الرغم من ذلك فإن أمراء الدولة النورية عقدوا معهم الهدنة ، فلم يعجب صلاح الدين هذا التصرف ، بل أنكره واستعظمه ، وأرسل إلى الأمراء بدمشق يقبح ما فعلوه [٥].

هذا بالإضافة إلى قيام الأمير سعد الدين كمشتكين[١] النائب بقلعة الموصل ، والذي وصل إلى حلب ، واتفق مع الأمير شمس الدين علي بن الدايه وإخوته[٢]

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٢ ص ١ ، ٢ ، أتابك العسكر : الأتابك أو الأطابك معناه الوالد أو الأمير باللغة التركية ، والمراد به أبو الأمراء ، وهو أكبر الأمراء المتقدمين بعد النائب ، وتتألف كلمة أتابك من " أتا " بمعنى الأب أو الشيخ المحترم لكبر سنه ، و " بك " بمعنى أمير ، وفي الاصطلاح مربي الأمير ، ويطلق على أمير أمراء الجيش لقب " أتابك العسكر" محمد دهمان : معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي ص ١١.

(٢) سيف الدين غازي بن مودود بن زنكي بن آقسنقر صاحب الموصل وابن أخي السلطان نور الدين محمود، توفي سنة (٥٧٦هـ/١١٨٠م) ابن تغري بردي :النجوم الزاهرة جـ ٦ ص٨٠ .

(٣) قلعة جعبر: على الفرات بين بالس والرّقّة قرب صفّين، وكانت قديما تسمّى دوسر. ياقوت : معجم البلدان جـ ٢ ص ١٤٢.

(٤) رأس العين : مدينة في منطقة الجزيرة السورية ، تسمى اليوم محافظة الحسكة التي تحتل الجزء الشمالي الشرقي من سورية ، وسميت راس العين لوقوعها على أكبر عيون نهر الخابور . مسعود الخوند : الموسوعة التاريخية الجغرافية جـ ١٠ ص ٣٠٢ ، ٣٠٣.

(٥) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٢ ص ٥- ٨ .

على إحضار الملك الصالح إسماعيل إلى حلب ، واستبد سعد الدين بالأمر وقام بأتابكية الملك الصالح [٣] .

كل هذه الأمور أوجدت سنداً قوياً لصلاح الدين من أجل التدخل في شؤون الدولة النورية ، بعد أن استتَّب الوضع الداخلي في مصر، فتجهز صلاح الدين للزحف نحو بلاد الشام بعد خمسة أشهر من وفاة نور الدين محمود .

وذكر ابن واصل : أنه خرج من القاهرة في مستهل شهر صفر عام (٥٧٠هـ/ ١١٧٤م) على رأس سبعمائة جندي، فذهب إلى بصرى ومنها اتجه إلى دمشق ، فلقيه ابن عمه ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه [٤] والأمير سعد الدين بن معين الدين أُنر ، ونزل عند جسر الخشب ، وتوافدت إليه الأجناد والعساكر الدمشقية والوجوه والأكابر ، ثم دخل دمشق بعد أن هزم بعساكره جماعة من الرجالة أرادوا منعه من الدخول [٥].

وقد ذكر أبو شامة نقلاً عن القاضي ابن شداد :" فتجهز بجمع كثير من العساكر وخلف بالديار المصرية من يستقل بحفظها وحراستها ، ونَظْمِ أمورها

---

(١) سعد الدين كمشتكين الخادم كان من أكابر مماليك نور الدين محمود ، وولاه الموصل نيابة عنه ، قتله الملك الصالح ابن نور الدين سنة (٥٧٣هـ/١١٧٧م) ابن تغري بردي : المصدر السابق جـ ٦ ص ٧٤ ، ٧٥.

(٢) شمس الدين علي بن الدايه ، كان هو وإخوته من أكابر أمراء نور الدين محمود ، قبض عليهم سعد الدين كمشتكين ، ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ص ٩ ، ١٠.

(٣) المصدر نفسه جـ٢ ص ٨- ١٠ .

(٤) محمد بن أسد الدين شيركوه ، ابن عم السلطان صلاح الدين ، صاحب حمص وتدمر والرحبة وسلمية ، مات بحمص يوم عرفة سنة (٥٨١هـ /١١٨٥م) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٩١.

(٥) مفرج الكروب جـ٢ ص ١٨- ٢٢.

وسياستها ، وخرج هو سائرًا مع جمع من أهله وأقاربه " [١] وذكر ابن كثير: " أن صلاح الدين خرج من الديار المصرية إلى البركة[٢] في مستهل صفر ، وأقام بها حتى اجتمع إليه العسكر " [٣] .

ويظهر من رواية ابن واصل أن صلاح الدين خرج بعدد قليل من الجيش ، واستعان بالجيوش الشامية ، ولكن روايتي أبي شامة وابن كثير تؤكد أن صلاح الدين خرج من مصر بعدد كبير من العسكر ، ويذكر شاكر مصطفى : " أن صلاح الدين خرج مستصحبًا معه نصف العسكر ، وأبقى النصف الآخر لحماية الحدود خوفًا من الهجمات الصليبية المباغتة ، ويبدو أن عدد فرسانه كان حوالي أربعة آلاف ؛ لأنه كان مع عسكر دمشق يبلغ ستة آلاف " [٤] .

وهذا يعني أن صلاح الدين صحب معه إلى الشام جزءًا من الجيش الأيوبي في مصر الذي كان به – بلا شك – جماعة من الأسدية ، وفي أثناء المعارك وصلت إليه مجموعة أخرى من الجيش المصري كان فيها بقية المماليك الأسدية.

على أية حال فقد أخذ صلاح الدين ينفذ سياسته في إعادة بناء الجبهة الإسلامية لكي يستطيع البدء في حركة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين[٥] ، فبعد

(١) الروضتين في أخبار الدولتين جـ٢ ص ٢٢٤.

(٢) بركة الجب: هي بظاهر القاهرة من بحريها، وكان العامة في زمن المقريزي يسمونها: بركة الحاج لنزول الحجاج بها عند مسيرهم من القاهرة إلى الحج في كل سنة، ونزولهم عند العود بها، ومنها يدخلون إلى القاهرة . المقريزي : المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٤٣٤.

(٣) البداية والنهاية جـ ١٦ ص ٥٠٠.

(٤) صلاح الدين الفارس المجاهد ص ٣٦٤.

(٥) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٢ ص ٩ ،١٠، ابن كثير:البداية والنهاية جـ ١٦ص ٥٠١ ، ٥٠٢.

أن استخلف صلاح الدين بدمشق أخاه سيف الإسلام طغتكين[١] سار إلى حمص [٢] في مستهل جمادى الأولي من سنة (٥٧٠هـ/١١٧٤م) فتسلم المدينة وامتنعت القلعة ، فترك بمدينة حمص من يحفظها ، ومنع من بالقلعة من التصرف ، ثم سار إلى حماه [٣] وتسلم المدينة ثم القلعة ، وتوجه بعد ذلك إلى حلب وحاصرها في الثالث من جمادى الآخرة سنة (٥٧٠هـ/١١٧٤م)[٤] ، فاستعان سعد الدين كمشتكين بسنان زعيم الإسماعيلية [٥] بمصياف [٦] وقلاعها ، وبذل له أموالاً ليقتل ليقتل صلاح الدين ، ولكنه لم ينجح في ذلك – كما سيأتي ذكره– كما كاتب الحلبيون ريموند الثالث صاحب طرابلس الذي لم يجد وسيلة لإبعاد صلاح الدين عن

(١) طغتكين بن أيوب أخو السلطان صلاح الدين ، ولقبه سيف الإسلام ، كان والي اليمن ، وتوفي بزبيد سنة (٥٩٣هـ/١١٩٧م) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ١٢٧.

(٢) حمص : تقع على نهر العاصي في الجزء الغربي من وسط سورية ، وعلى الطريق بين دمشق وحلب ، وتبعد عن دمشق ١٦٠ كم . مسعود الخوند : الموسوعة التاريخية الجغرافية جـ ١٠ ص ٢٨٥.

(٣) حماة : مدينة عظيمة تشرف على نهر العاصي ، وتبعد عن دمشق ٢٠٩ كم ، ترتفع ٣٠٠م عن سطح البحر . ياقوت : معجم البلدان جـ٢ ص٣٠٠، مسعود الخوند : الموسوعة التاريخية الجغرافية جـ ١٠ ص ٢٨٠.

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٢ ص ٢٢ ، ٢٣ ، طقوش : تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام ص ٥٧.

(٥) تنسب الإسماعيلية إلى إسماعيل بن جعفر الصادق ، وهي إحدى فرق الإمامية ، وتعتبر المؤسسة للباطنية والتأويل ، ويطلق عليها أيضًا الباطنية ، ومنها تفرعت فروع عديدة . د. عثمان عبد الحميد عشري : الإسماعيليون في بلاد الشام على عصر الحروب الصليبية كلية الآداب –جامعة القاهرة بالخرطوم ١٩٨٣م ص أ.

(٦) مصياف أو مصياب : حصن حصين مشهور للإسماعيلية بالساحل الشامي قرب طرابلس . ياقوت : المصدر السابق جـ ٥ ص ١٤٤.

حلب سوى مهاجمة حمص ، فظهر أمامها وشرع يهاجم أسوارها، تسانده الحامية المرابطة في القلعة التي ظلت على ولائها للزنكيين ، وفعلاً اضطر صلاح الدين إلى رفع الحصار عن حلب وارتحل عن أسوارها لإنقاذ حمص غير أن ريموند الثالث عاد إلى حصن الأكراد[١] بعد أن تم رفع الحصار عن حلب [٢] .

وتسلم صلاح الدين حمص ، ثم سار منها إلى بعلبك وتسلم قلعتها في رمضان من سنة (٥٧٠هـ/١١٧٤م) ثم عاد إلى حمص ، وفي ذلك الوقت وصل عز الدين مسعود بعساكر الموصل إلى حلب ومعه عز الدين محمود الملقب بزلفندار، ثم جاءوا إلى حماة فحصروها ، وراسلوا صلاح الدين في الصلح ، فأجابهم إلى أن يرد عليهم الحصون التي أخذها وأن يقنع بدمشق نائباً عن الملك الصالح ، وأن تكون الخطبة والسكة للملك الصالح ، وأن يرد عليهم كل ما أخذ من الخزانة ، فلما رأوه مجيباً لهم طلبوا الرحبة وأعمالها وعندما رفض رحلوا واستعدوا للمعركة ، فنقل السلطان خيامه إلى سفح قرون حماة [٣].

وفي تلك الأثناء وصل إليه جماعة من العسكر المصري عليهم عشرة من المقدمين ، منهم ابن أخيه تقي الدين عمر بن شاهنشاه [٤] وغيره ، ثم كانت الوقعة بين الفريقين في السابع عشر من رمضان سنة (٥٧٠هـ/١١٧٤م) فهزمهم

(١) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ص ٢٤ ، ابن كثير : البداية والنهاية جـ ١٦ ص ٥٠٣ ، علي الصَّلاَّبي : صلاح الدين الأيوبي ص ٤٢٥ ، ٤٢٦.

(٢) ابن واصل : المصدر السابق جـ ٢ ص ٢٤ ، ابن كثير : المصدر السابق جـ ١٦ ص ٥٠٣ ، علي الصَّلاَّبي : صلاح الدين الأيوبي ص ٤٢٥ ، ٤٢٦.

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٢ ص ٢٩ – ٣٢ ،وقرون حماة: قلّتان متقابلتان، جبل يشرف عليها ونهرها العاصي . ياقوت : معجم البلدان جـ ٢ ص ٣٠٠.

(٤) تقي الدّين عمر بن شاهنشاه بن أيوب الملك المظفّر ، صاحب حماة مات في سنة (٥٨٧هـ/١١٩٢م) ابن كثير : البداية والنهاية جـ ١٦ ص ٦٣٦ ، ٦٣٧.

صلاح الدين وتبعهم هو وعسكره حتى جاوز معسكرهم ، ثم تبعهم بنية محاصرة حلب ، وتم الصلح بين الطرفين على أن يكون له ما بيده من بلاد الشام ولهم ما بأيديهم منها ، ورحل عن حلب في العشر الأول من شوال من نفس السنة [١] .

ومن خلال العرض السابق يتضح أن المماليك الأسدية الذين كانوا يشكلون جزءًا من العسكر المصري شاركوا في تلك المعركة التي انتهت بانتصار صلاح الدين على الرغم من قلة عدد جيشه مقارنة بجيش حلب المدعوم بعساكر الموصل، الذين ذكر عنهم ابن كثير أنهم كانوا " في جحافل كثيرة "[٢] .

ثم عاد صلاح الدين إلى دمشق منتصرًا على حلب مصالحًا لها ، وأمر العساكر المصرية بالعودة إلى مصر والاستراحة إلى أن يعاود طلبهم ، فساروا إليها وأقاموا بها إلى أن أرسل إليهم واستدعاهم مرة أخرى[٣].

ولما علم صلاح الدين بنية الحلبيين في نقض العهد عندما حلفوا لسيف الدين بن مودود صاحب الموصل ، كتب إلى أخيه العادل بمصر يأمره بتجهيز الجيوش والخروج من مصر في شهر شعبان من سنة (٥٧١هـ/١١٧٥م) [٤].

وقد كان صلاح الدين مدركًا لأهمية وجود الجيش المصري في تلك المعركة حيث إنه انتظر حتى يصل إليه على الرغم من تأخر الجيش في الوصول[٥] ولما وصلت العساكر الأسدية والصلاحية وغيرهم من مصر إلى صلاح الدين سار بهم متوجهاً إلى حلب ، فلما وصل حماه بلغه أن عدد جيوش الحلبيين والمواصلة بلغت

(١) ابن واصل : المصدر السابق جـ٢ ص ٣٢ ، ٣٣.

(٢) البداية والنهاية جـ ١٦ ص ٥٠٥ .

(٣) شاكر مصطفى : صلاح الدين الفارس المجاهد ص ١٧٣.

(٤) أبو شامة :الروضتين جـ ٢ ص ٢٦٨ ، ٢٧٠،ابن واصل : مفرج الكروب جـ٢ ص٣٦– ٤٤ العيني : عقد الجمان جـ ١ ص ٢١٨.

(٥) ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٩٥ .

عشرين ألفًا ، أما قوات السلطان صلاح الدين التي وصلت إليه فلم تكن سوى ستة آلاف ، فسار بهم إلى تل السلطان والتقى بالحلبيين والمواصلة وهزمهم وأسر عدد من أكابر أمرائهم ، واستولى على مخيمهم وسرادق سيف الدين غازي وابن أخيه عز الدين فرخشاه ، ثم سار صلاح الدين فاستولى على بزاغة ومنبج ، وحاصر أعزاز ثمانية وثلاثين يوما ونصب عليها المجانيق على الرغم من أنه قُتل كثير من عسكره أثناء الحصار حتى تسلم القلعة في الحادي عشر من ذي سنة(٥٧١هـ/١١٧٥م)[١].

وعلى الرغم من أن رواية أبي شامة وابن واصل تؤكد أن عدد جيوش صلاح الدين كان ستة آلاف ، إلا أن رواية ابن كثير تدل على أن عددهم كان كثيرًا على الرغم من أنه لم يحدد عددها فيذكر :" ولكن الجيوش قد خرجت من الديار المصرية في جحافل كالجبال ، وعدة وعدد كالرمال " [٢].

ومن الجهود الحربية التي قام بها الأسدية مشاركتهم في فتوحات بلاد الجزيرة فعندما عزم صلاح الدين على ضم حلب وبلاد الجزيرة ، خرج بعساكره – الأسدية والصلاحية وغيرهم – من مصر في المحرم سة (٥٧٨هـ/ ١١٨٢م) واتجه نحو حلب ، وحاصرها ثلاثة أيام في جمادي الأولى ، رحل بعدها إلى الموصل لانتزاعها من آل زنكي مفضلاً ضمّ الجزيرة والحصون التابعة لها أولاً ، من أجل ذلك قام بعبور نهر الفرات عند البيرة ، وكان صاحبها يدين بالطاعة لصلاح الدين [٣] ثم

(١) أبو شامة :الروضتين جـ ٢ ص ٢٦٨ ، ٢٧٠، ابن واصل :مفرج الكروب جـ٢ ص٣٦- ٤٤

(٢) البداية والنهاية جـ ١ ص ٥١٠.

(٣) علي الصَّلاَّبي : صلاح الدين الأيوبي ص ٤٣٦.

استطاع أن يستحوذ على بلاد الجزيرة ، ودانت له الكثير من البلاد مثل: الرها [١] والرقة[٢] وغيرها [٣].

ثم وصل صلاح الدين إلى الموصل في رجب سنة(٥٧٨هـ/ ١١٨٢م) وضرب عليها حصاراً مركزاً ، ثم هاجمها، لكنها استعصت عليه بسبب مناعتها، وبفضل الاستعدادات الضخمة، التي نفَّذها عز الدين مسعود الأول ونائبه قايماز، حيث حشدا العساكر الكثيرة للدفاع عنها ، وكانت لديهم كميات كبيرة من الأسلحة وآلات الحصار ، وقام صلاح الدين أثناء الحصار بجولة استطلاعية حول المدينة، تأكد له استحالة اقتحامها[٤]، فرحل واستطاع بعد ذلك أن يضم سنجار[٥] وآمد[٦] وحلب[٧] .

.

وعقب استيلاء صلاح الدين على حلب عاد لحصار الموصل للمرة الثانية سنة (٥٨١هـ/١١٨٥م) [٨]، ثم تركها مؤقتًا ليستولي على ميافارقين ، ولما عاد

---

(١) الرها : مدينة من أرض الجزيرة متصلة بحران. الحميري : الروض المعطار ، ص ٢٧٣ .

(٢) الرقة : مدينة مشهورة على الفرات ، معدودة في بلاد الجزيرة لأنها من جانب الفرات الشرقي ، ياقوت : معجم البلدان جـ٣ ص ٥٨ ، ٥٩ ، وهي مدينة سورية واقعة في المثلث الأرضي الممتد من جبال طوروس شمالًا ، والمحصور بنهري الفرات من الغرب والبليخ من الشرق . مسعود الخوند : الموسوعة التاريخية الجغرافية جـ ١٠ ص ٣٠٥.

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٢ ص ١١٧ ، ١١٨.

(٤) علي الصَّلاَّبي: صلاح الدين الأيوبي ص ٤٣٦ .

(٥) سنجار: وهي برية الثرثار وهي من الجزيرة . الحميري : الروض المعطار ص٣٢٦ .

(٦) آمد : مدينة من كور الجزيرة من أعمال الموصل والجزيرة ما بين دجلة والموصل وهي بمقربة من ميافارقين. الحميري : المصدر السابق ص ٣.

(٧) علي الصَّلاَّبي: المرجع السابق ص ٤٣٨-٤٤٠.

(٨) ابن الأثير : الكامل في التاريخ جـ ١٠ ص ١٣١ .

لمواصلة حصار الموصل أصابه مرض استغله المواصلة ليعقدوا صلحًا مع صلاح الدين سنة (٥٨٢هـ/١١٨٦م) رضي بمقتضاه صاحب الموصل أن يكون تابعًا لصلاح الدين ، وبذلك تم رأب الصدع الذي أصاب الوحدة الإسلامية[١] .

دور الأسدية في إنقاذ صلاح الدين من الاغتيال

ذكرت المصادر التاريخية ما يؤكد مشاركة الأسدية في توحيد الجبهة الإسلامية وإخلاصهم للسلطان صلاح الدين ، ومنها مشاركة الأمير سيف الدين يازكوج الأسدي في إنقاذ صلاح الدين من محاولة الاغتيال التي تعرض لها أثناء قيامه بتوحيد الجبهة الإسلامية ، وذلك عندما حاول الباطنية اغتياله أثناء حصار أعزاز[٢] في سنة (٥٧١هـ /١١٧٥م) عندما أرسل سنان زعيم الباطنية بمصياف وقلاعها جماعة من أتباعه ليقتلوا السلطان صلاح الدين بإيعاز من سعد الدين كمشتكين – كما سبق – الذي بذل له المال لتنفيذ ذلك الأمر، فدخل طائفة منهم في جيشه في زي الجند واختلطوا بهم ، وعندما كان صلاح الدين في خيمة الأمير جاولي الأسدي ، وهو أحد كبار الأمراء الأسدية ، حيث كانت له خيمة قريبة من المجانيق وكان السلطان يحضر فيها لمشاهدة آلات الحصار ، ويحرض الرجال على الحرب ، فوثب عليه أحد الباطنية الذي كان يرتدي زي الأجناد وأراد قتله ، فأدركه الأمير سيف الدين يازكوج الأسدي ، فأمسك السكين بكفه فجرحه الباطني فلم يطلقها من يده إلى أن قتل الباطني [٣] .

وجاء آخر من الباطنية أيضا يريد الهجوم على السلطان صلاح الدين ، فاعترضه الأمير داود بن منكلان الكردي وقتله بالسيف ، ولكن الباطني كان قد

---

(١) سعيد عاشور : الأيوبيون والمماليك ص ٤٩ .

(٢) أعزاز: بليدة بها قلعة تقع شمالي حلب ، ياقوت : معجم البلدان جـ ٤ ص ١١٨

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٢ ص ٤٤،٤٥، ابن كثير: البداية والنهاية جـ ١٦ ص٥١٢.

أصاب ابن منكلان في جبهته مات بسببها بعد أيام ، وجاء آخر من الباطنية ولكن الأمير علي بن أبي الفوارس هجم عليه وأخذه تحت إبطه، وبقيت يد الباطني من ورائه لا يتمكن من ضربه، فصاح علي : اقتلوه واقتلوني معه، فجاء ناصر الدين محمد بن شيركوه فطعن الباطني بسيفه فسقط ميتا ونجا ابن أبي الفوارس ، وخرج آخر من الباطنية منهزمًا، فلقيه الأمير شهاب الدين الحارمي، فابتعد عن طريق شهاب الدين فقصده أصحابه وقطعوه بالسيوف[١] .

دور المماليك الأسدية في جهاد الصليبيين

كان للمماليك الأسدية دور بارز في مواجهة الخطر الصليبي ؛ حيث إن الدولة الأيوبية أخذت على عاتقها مواجهة ذلك الخطر ، وأعدت عدتها لذلك ، وتمكن صلاح الدين من تسخير إمكانات مصر الاقتصادية والبشرية بالإضافة إلى إمكانات الشام والجزيرة لخدمة ذلك الهدف [٢] .

وكثيرًا ما نجد المصادر التاريخية تتحدث عن استدعاء جيش مصر وخروجه من آن لآخر للمشاركة في الحروب الصليبية بناءً على طلب السلطان صلاح الدين أو بصحبته في حال خروجه من مصر بنية الجهاد .

ومن ناحية الصليبيين فقد كانوا يتحينون الفرص للانقضاض على البقاع الإسلامية في وقت انشغال صلاح الدين الأيوبي بتوحيد الجبهة الإسلامية ، ومن ذلك ما حدث عندما خرجوا وأغاروا على البقاع ، فخرج إليهم الأمير شمس الدين

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، جـ ١٠ ص ٧٦ ، أبو شامة : الروضتين في أخبار الدولتين جـ ٢ ص ٢٦٩ ، البنداري : سنا البرق الشامي ، تحقيق د/ فتحية النبراوي – مكتبة الخانجي – القاهرة ١٩٧٩م ص ١٠٠ ، ١٠١.

(٢) نجوى كيرة : الجواري والغلمان في مصر ص ٣٥٥.

بن المقدم ، وكان ببعلبك ، فقتل منهم وأسر أكثر من مائتي أسير، وأحضرهم عند السلطان أثناء حصاره مصياف[١].

وفي الثالث من جمادى الأولى سنة (٥٧٣هـ/١١٧٧م) خرج السلطان صلاح الدين بالجيش المصري – الأسدية والصلاحية وغيرهم – من القاهرة بنية الجهاد ، بعد بقائه في مصر فترة من الزمن لتمهيد أمورها وتحصينها ، وسار حتى نزل عسقلان[٢] يوم الأربعاء في التاسع والعشرين من جمادى الأولي فسبى وغنم وجمع هناك من كان معه من الأسرى فضرب أعناقهم ، وقسم جيشه إلى عدة أقسام وأغاروا على الكثير من المعاقل الصليبية [٣].

كما كان المماليك الأسدية ضمن الجيش الذي اشتبك مع الصليبيين في موقعة الرملة [٤] في الثاني من جمادى الآخرة سنة (٥٧٣هـ/١١٧٧م) التي انتهت بهزيمة المسلمين ، وكان السلطان صلاح الدين قد سار بالجيش للإغارة على بعض المعاقل الصليبية ، فاعترضهم نهر تل الصافية[٥]، وازدحمت على العبور أثقال الجيش ، وفوجئ الجيش الإسلامي بهجوم صليبي بقيادة أرناط صاحب حصن الكرك ، وكان السبب في هزيمة المسلمين عنصر المفاجأة في الهجوم الصليبي ثم

(١) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٢ ص ٤٨ ، ومصياف أو مصياب : حصن حصين مشهور للإسماعيلية بالساحل الشامي قرب طرابلس . ياقوت : معجم البلدان جـ ٥ ص ١٤٤.

(٢) عسقلان : مدينة فلسطينية تقع بالقرب من غزة على الطريق الممتد من عكا شمالًا إلى رفح جنوبًا : كمال موريس : الموسوعة الجغرافية للوطن العربي ص ٣٧٥.

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٢ ص ٥٨ ، ٥٩.

(٤) الرملة : تقع جنوبي – غربي اللدّ ، على الطريق الرئيس الآتي باتجاه حيفا وتل أبيب باتجاه بيت جبرين. كمال موريس : الموسوعة الجغرافية للوطن العربي ص ٢٤٦.

(٥) تل الصافية : حصن من أعمال فلسطين قرب بيت جبرين من نواحي الرملة . ياقوت: معجم البلدان جـ ٢ ص٤٢ .

أن المسلمين لم يكن لهم حصن قريب يأوون إليه ، فقصدوا جهة الديار المصرية ، فضلوا الطريق وأُسر منهم جماعة ، وممن وقع في الأسر الفقيه ضياء الدين عيسي الهكاري الأسدي ، وأخيه ظهير الدين ومن كان في صحبتهم ولم يخلص الفقيه عيسى الهكاري الأسدي من الأسر إلا بعد سنتين ، بفدية ستين ألف دينار بالإضافة إلى إطلاق سراح بعض الأسرى الصليبيين ، حيث إن السلطان صلاح الدين كان قد التزم بفدائه من الأسر بعد موقعة مرج عيون [١].

وكان السلطان صلاح الدين قد خرج من هذه الموقعة إلى مصر ، ولما علم بمهاجمة الصليبيين قلعة حارم[٢] وحصارها عزم على التوجه إلى بلاد الشام للدفاع عنها ، فخرج ومعه عدد كبير من الجيش المصري ، فوصل إلى دمشق في الرابع والعشرين من شوال سنة (٥٧٣هـ/١١٧٧م)، ثم جاءه الخبر بانسحاب الجيش الصليبي من حارم [٣] ووقعت بعد ذلك عدة وقعات بين جيش صلاح الدين

(١) العماد الكاتب : البرق الشامي تحقيق / فالح حسين ، مؤسسة عبد الحميد شومان ، عمان – الأردن ١٩٨٧م جـ ٣ ص ٤١ ، ١٥٥ ، ابن الأثير : الكامل في التاريخ جـ ١٠ ص ٨٦ ابن واصل : المصدر السابق جـ٢ ص ٥٩-٦١ ، ٧٦ ، ومرج عيون : بسواحل الشام . ياقوت: المصدر السابق جـ ٥ ص ١٠١.

(٢) حارم : حصن حصين وكورة جليلة تجاه أنطاكية. ياقوت : معجم البلدان جـ ٢ ص ٢٠٥ ومدينة حارم مدينة سورية تقع في أقصى شمال محافظة أدلب ، وتبعد عن مدينة أدلب ٦٥كم . مسعود الخوند : الموسوعة التاريخية الجغرافية جـ ١٠ ص ٢٧٥.

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٢ ص ٦٤ ، ٦٥ ، ابن كثير : البداية والنهاية جـ ١٦ ص ٥٢٢ ، ٥٢٣.

والصليبيين كان الأسدية مشاركين فيها منها: موقعة حصن بيت الأحزان [١] وموقعة ابن الهنفري [٢]

ثم أرسل السلطان صلاح الدين أخاه المعظم شمس الدولة تورانشاه إلى الديار المصرية ببعض الأجناد حيث إن السنة كانت سنة جدب شديد ، وبعد أن ودعه استمر السلطان صلاح الدين في الغارات على ممتلكات الصليبيين في الشام حتى قرر مهاجمتهم بحملة قوية وهي التي عرفت بموقعة: "مرج عيون" سنة(٥٧٥هـ/١١٧٩) وقد انتصر فيها السلطان صلاح الدين وأسر فرسانهم وشجعانهم [٣].

ولم تكن مشاركة المماليك الأسدية في المعارك فقط ، بل كان أمراؤهم يشاركون في التخطيط للمعارك ، ويدلون بآراءٍ تخالف رأي السلطان صلاح الدين في بعض الأحيان ، ومن ذلك بعدما انتصر السلطان صلاح الدين في موقعة مرج عيون اتجه إلى حصن بيت الأحزان لتخريبه ، وذلك في ربيع الأول من سنة (٥٧٥هـ/١١٧٩م) فأحاط به وفرق العساكر للإغارة على ممتلكات الصليبيين ، ثم احتاج السلطان إلى متارس من أجل المنجنيقات ، فاتجه إلى ضياع صفد[٤] وكانت للداوية حينئذ ، فأمر بقطع كرومها وحمل أخشابها ورجع ، وكان من رأي السلطان صلاح الدين أن يرميهم بالمنجنيق ، فقال له جاولي الأسدي مقدم الأمراء الأسدية :

(١) ابن واصل : المصدر السابق جـ٢ ص ٧٢ ، وبيت الأحزان : بلد بين دمشق والساحل ، وكان الإفرنج عمروه وبنوا فيه حصنًا حصينًا . ياقوت : المصدر السابق جـ ١ ص٥١٩ .

(٢) ابن واصل : المصدر السابق جـ٢ ص ٧٢ ، ٧٣.

(٣) المصدر نفسه جـ٢ ص ٧٥.

(٤) صفد : مدينة فلسطينية تقع في الجليل الشمالي على سفح جبل الجرمق الجنوبي ، وتطل شرقًا على مجرى نهر الأردن . كمال موريس : الموسوعة الجغرافية للوطن العربي ص ٣٢٧.

" الرأي أن نجربهم بالزحف أول مرة ، فننظر الحال معهم ، فإن حصل الغرض وإلا نصب المجانيق ما يفوت "[١] .

وبالفعل اقتنع السلطان برأي جاولي الأسدي وأمر فنودي بالزحف نحو الحصن واشتد القتال وعظم الأمر ، واستمر القتال حتى الليل ، وفي اليوم التالي بذل المسلمون جهداً كبيرًا من أجل هدم السور ، حتى تمكنوا من ذلك ، وملكوا الحصن ، وأسروا كل من فيه ، وأطلقوا من كان فيه من أسرى المسلمين، وأقام السلطان حتى تم هدم الحصن من الأساس[٢].

وبعد ما تم لصلاح الدين الاستيلاء على حلب ، عاد إلى دمشق في الثالث من جمادي الأولى سنة (٥٧٩هـ/١١٨٣م) ، ثم خرج منها في أول جمادى الآخرة من نفس العام ، وقام بعدة غارات على بعض القلاع والمعاقل الصليبية ، كما قام بتخريب بعض المعاقل مثل بيسان وغيرها [٣].

وكان بعض المماليك الأسدية ضمن السرية التي اشتبكت مع جيش الكرك الصليبي عندما أرسل صلاح الدين سرية كبيرة فيها الأمير جاولي الأسدي في طائفة من الأسدية وجرديك النوري في طائفة من النورية ، فوجدوا جيش الكرك

(١) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٢ ص ٨٠ ، ٨١.

(٢) المصدر نفسه جـ٢ ص ٨١ ، ٨٢.

(٣) العيني : عقد الجمان جـ ٢ ص ١٥. وبيسان ذكرها ياقوت بأنها : مدينة بالأردن بالغور الشامي ، وهي بين حوران وفلسطين . معجم البلدان جـ ١ ص ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، وهي الآن مدينة فلسطينية تقع في أرض منخفضة شمالي الغور في الضفة الغربية لنهر الأردن كمال موريس : الموسوعة الجغرافية للوطن العربي ص ١٢٢.

يريدون نجدة أصحابهم من جنود القلاع الصليبية فاشتبكوا معهم وقتلوا منهم عددًا كبيرا، وأسروا مائة أسير ، ولم يفقد من المسلمين سوى شخص واحد [١] .

ومن الأدوار الحربية التي قام بها الأسدية في سنة (٥٧٩هـ/١١٨٣م) توجه سعد الدين كمشبه الأسدي وعلم الدين قيصر إلى الداروم[٢] حيث التقوا بالصليبيين واستطاعوا أن يقتلوهم جميعًا ثم قدموا برؤوسهم إلى القاهرة [٣].

ولما بلغ السلطان صلاح الدين تجمع القوات الصليبية في صفورية[٤] ، خرج لهم وقاتلهم وقتل منهم عدد كبير من الجنود [٥]، ثم سار صلاح الدين إلى الكرك في رجب سنة (٥٧٩هـ/١١٨٣م) فحاصرها ورماها بالمجانيق لكنه لم يستطع الاستيلاء عليها[٦]، وكان سبب حرصه على الاستيلاء على الكرك تصرفات أميرها أرناط الذي دأب على نقض العهود والمواثيق والغدر ومهاجمة قوافل الحجاج [٧].

لذلك نجد أن السلطان صلاح الدين قد أرسل في سنة (٥٨٠هـ/١١٨٤م) يطلب من أمراء الأقاليم أن يرسلوا له العساكر ، فكان أول من وصل ابن أخيه

(١) ابن كثير : البداية والنهاية جـ ١٦ ص ٥٦٥ ، العيني : المصدر السابق جـ ٢ ص ١٥.

(٢) الداروم : قلعة بعد غزة للقاصد إلى مصر. ياقوت : المصدر السابق جـ ٢ ص ٤٢٤.

(٣) المقريزي : السلوك جـ ١ ص ١٩٣.

(٤) صفورية : بلدة من نواحي الأردنّ بالشام وهي قرب طبرية. ياقوت : المصدر السابق جـ ٣ ص ٤١٤.

(٥) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٢ ص ١٤٨.

(٦) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٢ ص ١٥١، العيني : عقد الجمان جـ ٢ ص ١٦.

(٧) ابن واصل : المصدر السابق جـ٢ ص ١٨٥.

الملك المظفر تقي الدين عمر[١] من مصر بالعساكر المصرية وكان نائبه بها كما جاءته العساكر المشرقية ، وجاء نور الدين بن قرا أرسلان ، وجاء الملك العادل من حلب بعسكره ، ثم سار السلطان بهذه الجموع إلى الكرك مرة أخرى ونزل بواديها في الرابع عشر من جمادى الأولى سنة (٥٨٠هـ/١١٨٤م) ونصب عليه المجانيق ، فاستنجد الفرنج بملوكهم وفرسانهم ، فلما علم صلاح الدين بذلك تيقن أنه لا يستطيع الاستيلاء على الحصن ، فعزم على قصد الساحل ، فسار إلى نابلس[٢] فأحرقها وغنم ما فيها ، ثم سار إلى سبسطية[٣] ثم إلى جينين[٤] فخربها فخربها وغنم أموالها ، وعاد إلى دمشق ، وبث السرايا يمينًا وشمالاً لتخريب الممتلكات الصليبية [٥] .

دور الأسدية في موقعة حطين : [٦]

---

(١) الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب ، كان عزيزًا عند عمه صلاح الدين ، استنابه بمصر وغيرها من البلاد ، وأقطعه حماة ومدنًا كثيرة معها حولها ومن بلاد الجزيرة ، وتوفي (٥٨٧هـ/١١٩١م) . ابن كثير : البداية والنهاية جـ ١٦ ص ٦٣٦ .

(٢) نابلس : مدينة فلسطينية تقع بين جبلين شمالي القدس ، من أشهر مدن الضفة الغربية لنهر الأردن وأكبرها . كمال موريس : الموسوعة الجغرافية للوطن العربي ص ٦١٢.

(٣) سبسطية : بلدة فلسطينية ، وهي من أعمال نابلس .ياقوت : معجم البلدان جـ ٣ ص ١٨٤ ١٨٤ وتعرف باسم السامرة ، وتقع شمالي غربي نابلس . كمال موريس : المرجع السابق ص ٢٦٦.

(٤) جينين : بليدة حسنة بين نابلس وبيسان : ياقوت: المصدر السابق جـ ٢ ص ٢٠٢.

(٥) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٢ ص ١٥٧ – ١٥٩.

(٦) حطين : قرية بين أرسوف وقيسارية ، وبها قبر شعيب عليه السلام . ياقوت : معجم البلدان البلدان جـ ٢ ص ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، وهي قرية فلسطينية تقع إلى الغرب من بحيرة طبرية . كمال موريس : الموسوعة الجغرافية للوطن العربي ص ٢٠٩.

تعد موقعة حطين من المعارك الفاصلة في التاريخ العالمي بشكل عام ، وقد شارك فيها المماليك الأسدية ؛ لأن السلطان صلاح الدين أرسل إلى سائر البلدان يطلب العساكر فجاءته من كل فج ، وخرج في مستهل المحرم سنة (٥٨٣هـ/١١٨٧م) ، ولما وصل إلى رأس الماء أمر ولده الملك الأفضل[١] بالإقامة هناك في بعض الجند لكي تجتمع عنده الإمدادات ، ثم سار هو إلى بصرى [٢] ، وخيم على قصر السلامة ؛ لكي يؤمن الحجاج ، ولما وصلوا واطمأن عليهم سار إلى الكرك فنازلها وقطع أشجارها وأفسد زرعها ، ثم سار على الشوبك وفعل بها مثل ذلك ، وفي ذلك الوقت وصلت العساكر المصرية فتلقاها بالقريتين ، وأمرهم بالانتشار في اراضي الكرك والشوبك ، بينما كان الملك الأفضل مقيما برأس الماء وقد اجتمعت عنده الجحافل والجموع ، ثم سار السلطان صلاح الدين إلى عشترا وخيم بها ، واجتمعت عنده العساكر الإسلامية التي بلغ عددها اثنا عشر ألف مقاتل رتبهم أطلاباً [٣] هذا بالإضافة إلى القوات المتطوعة [٤].

---

(١) الملك الأفضل نور الدين علي ابن السلطان صلاح الدين ولد بمصر سنة (٥٦٥هـ / ١١٦٩م) وهو أكبر الأخوة والمعهود إليه بالسلطنة مات فجأة في ربيع الأول سنة (٦٢٢هـ / ١٢٢٥م) بسميساط ونقل إلى حلب ودفن بها وعمره سبع وخمسون سنة . الحنبلي : شفاء القلوب في مناقب بني أيوب ص ٢٢٦ – ٢٣١.

(٢) بصرى: بالشام من أعمال دمشق، وهي قصبة كورة حوران، مشهورة عند العرب قديمًا وحديثًا. المصدر السابق جـ ١ ص ٤٤١ ، ٤٤٢.

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٢ ص ١٨٦ ، وأطلاب : جمع مفردها طلب ، والطلب : فرقة من المماليك خاصة بأمير من الأمراء ، وعدد عسكره من ٧٠ – ٢٠٠ فارس في ميدان القتال ، ثم صار يدل على الكتيبة .محمد دهمان : معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي ص ١٠٨ .

(٤) ابن كثير : البداية والنهاية جـ١٦ ص ٥٨٠.

وفي ذلك يذكر ابن كثير: " فلما اجتاز الحجيج في أواخر صفر سار السلطان فنزل الكرك ، وقطع ما حوله من الأشجار ، ورعى الزروع وأكلوا الثمار ، وجاءته العساكر المصرية ، وتوافت الجيوش الشرقية بالرماح الخطية والسيوف المشرقية فنزلوا عند ابن السلطان على رأس الماء ، وبعث الأفضل سرية نحو بلاد الفرنج ، فقتلت وغنمت وسلمت وكسرت وأسرت ، ورجعت فبشرت بمقدمات الفتح والنصر ، وجاء السلطان في جحافله والتفت علي جميع العساكر البادي منهم والحاضر"(١).

وسار بهم يوم الجمعة السابع عشر من ربيع الآخر سنة (٥٨٣هـ/١١٨٧م) إلى خسفين(٢) ثم الأردن ، وأقام بثغر الأقحوان(٣) لمدة خمسة أيام رتب فيها أدوار الأمراء وأحاط جيشه ببحيرة طبرية(٤) ، ثم رحل ونزل غرب طبرية على سفح الجبل منتظراً هجوم الأعداء فلم يتحركوا ، ثم زحف على طبرية ففتحها وامتنعت عليه القلعة ، الأمر الذي جعل الصليبيين يتحركون بجموعهم ليمنعوه من الاستيلاء على قلعة طبرية ، فترك على طبرية من يحفظ قلعتها ، وسار هو والتقى بالصليبيين على سفح جبل طبرية ليلاً ، واستمرت المعركة حتى الصباح واستمر القتال حتى حلول الظلام ، فبات كل فريق في سلاحه ، وأصبحوا يوم السبت الخامس والعشرين من ربيع الآخر ، وقد استولى المسلمون على ماء البحيرة ؛ فلم يستطع الصليبيون

(١) المصدر نفسه جـ١٦ ص ٥٧٩ ، ٥٨٠.

(٢) خسفين : قرية من أعمال حوران بعد نوي في طريق مصر بين نوي والأردن ، وبينها وبين دمشق خمسة عشر فرسخًا . ياقوت : معجم البلدان جـ ٢ ص ٣٧١.

(٣) الإقحوان أو الإقحوانة : موضع بالأردن من أرض دمشق على شاطئ بحيرة طبرية : ياقوت : المصدر السابق جـ ١ ص ٢٣٤.

(٤) طبرية : ذكرها ياقوت : بأنها من أعمال الأردن في طرف الغور. المصدر السابق جـ ٤ ص ١٧-٢٠ ، وهي الآن مدينة فلسطينية منخفضة عن سطح البحر تطل على البحيرة المسماة بإسمها . كمال موريس : الموسوعة الجغرافية للوطن العربي ص ٣٤٧.

الوصول إلى الماء حتى اشتد بهم العطش ، وأخذتهم سهام المسلمين ، وقتل منهم وأسر عدد كبير ، فآووا إلى جبل حطين ، فتبعهم المسلمون فلم ينج منهم أحد ، ثم أحاط المسلمون بالباقين الذين اجتمعوا بجبل حطين ، وأشعلوا النيران حولهم ، وانتهت المعركة بانتصار كبير للجيش الإسلامي ، وقام المسلمون بعد ذلك بفتح قلعة طبرية [١].

دور الأسدية في فتوحات صلاح الدين بعد حطين :

بعد أن أتم السلطان صلاح الدين فتح قلعة طبرية رحل إلى عكا فوصلها يوم الأربعاء سلخ ربيع الآخر سنة (٥٨٣هـ/١١٨٧م) واستولى عليها بعد رحيل أهلها عنها ، ودخلها المسلمون في الثاني من جمادى الأولى سنة (٥٨٣هـ/١١٨٧م) ، واستولوا على ما كان فيها من الأموال ، واستنقذوا من كان فيها من أسرى المسلمين ، وسلم السلطان صلاح الدين البلد إلى ولده الأفضل نور الدين ، وأعطى جميع ما فيه مما كان للداوية من إقطاع وضياع للفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري الأسدي [٢]، ثم قام السلطان صلاح الدين بفتح العديد من الحصون حول عكا ، ثم تسلم حصون الداوية [٣].

وبعد ذلك سار السلطان في عساكر المسلمين حتى نزل على القدس في الخامس عشر من رجب ، ونزل بالجانب الغربي ، واستمر السلطان خمسة أيام يطوف حول البلد لينظر أي الجهات أقل حصانة فلم يجد فيه سوى موضع من جهة الشمال ، فانتقل إلى هذه الناحية ونصب عليها المجانيق وتقاتل الفريقان ، وكان الصليبيون يخرجون بخيولهم كل يوم يقاتلون ، ولما رأوا شدة قتال المسلمين اتفق

(١) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٢ ص ١٨٧- ١٩٥.

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٢ ص ٢٠١.

(٣) المصدر نفسه جـ٢ ص ٢٠٥-٢١٠.

رأيهم على طلب الأمان وتسليم القدس للسلطان صلاح الدين فتسلمها بعد استشارة أمرائه [١] ، وفي مستهل رمضان سنة (٥٨٣هـ/١١٨٧م) توجه السلطان إلى عكا فأصلح شأنها ، ثم رحل منها إلى صور[٢] ، وجاءته العساكر والإمدادات ، وشرع في محاصرة صور ، ولكنه رحل عنها بسبب ضجر كثير من الأمراء ورغبتهم في الرحيل نتيجة لطول مدة الحصار ، وعلى الرغم من ذلك فكان هناك بعض الأمراء يرون البقاء حتى الفتح وتعللوا بما بذلوه من مجهود ، وما أنفقوه من أموال ، وعلى رأسهم الفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري الأسدي وغيره ، ولكن السلطان صلاح الدين آثر الرحيل ، ورجعت الجنود إلى بلادها ، ورحل صلاح الدين إلى عكا [٣].

وكان المماليك الأسدية يُكلفون بمهمات عسكرية من السلطان صلاح الدين الذي كان دائمًا يستعين في المهام الجسام بالشجعان منهم ، ومن ذلك عندما سار إلى عسقلان كان قد عين بعض القوات لحصار حصن كوكب[٤] ولتأمين الطريق البري والبحري ؛ لكي لا يقوم الصليبيون بقطعه ، وكان حصن كوكب للاسبتار[٥]

---

(١) المصدر نفسه جـ٢ ص ٢١١-٢١٤.

(٢) صور: مدينة مشهورة مشرفة على بحر الشام داخلة في البحر يحيط بها البحر من جميع جوانبها إلا الرابع الذي منه شروع بابها . ياقوت : معجم البلدان جـ ٣ ص ٤٣٣ ، ٤٣٤ وهي مدينة لبنانية عريقة تقع في الجنوب اللبناني ، وتبعد عن بيروت ٨٥كم . كمال موريس : الموسوعة الجغرافية للوطن العربي ص ٣٣٠.

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٢ ص ٢٤٥، ٢٤٦.

(٤) كوكب : اسم قلعة على الجبل المطل على مدينة طبرية حصينة رصينة تشرف على الأردن . ياقوت : معجم البلدان جـ ٤ ص ٤٩٤.

(٥) الاسبتارية : فرقة عسكرية يرجع تأسيسها إلى ما قبل الحملة الصليبية الأولى عندما طلب جماعة من تجار مدينة "أمالفي" الإيطالية من الخليفة الفاطمي المستنصر سنة (٤٤٠هـ/ ١٠٤٨م) أن يسمح لهم بإقامة دير وبيمارستان في بيت المقدس يكون ملجأ ومأوى للحجاج

وهو قريب من حطين فلجأ إليه جمع ممن سلم من الاسبتارية فحموه فلما حاصره المسلمون استراح الناس من شر من فيها وانتهى قطع الطرق [١] ، وقد عين السلطان صلاح الدين على هذه القوات الأمير سيف الدين محمود الأسدي أخا جاولي الأسدي الذي تذكر المصادر التاريخية عنه: " أنه كان شهماً شجاعاً صاحب دين وعبادة"[٢] وظل محاصراً لحصن كوكب إلى آخر شوال سنة(٥٨٣هـ/١١٨٧م) وكانت قواته تحرس الحصن بالتناوب الرتيب ، فلما كان آخر ليلة من شوال غفل حراس تلك الليلة فلم يشعروا إلا بهجوم مباغت من الصليبيين ، واستشهد الأمير سيف الدين محمود الأسدي وأصحابه ، واستولى الصليبيون على ما كان عندهم من طعام وسلاح ، وعادوا إلى قلعتهم فقووا بذلك قوة عظيمة أمكنهم أن يحفظوا قلعتهم إلى أن أُخذت في أواخر سنة (٥٨٤هـ/١١٨٨م) ، وأتى الخبر إلى صلاح الدين بذلك عند رحيله عن صور فعظم ذلك عليه بالإضافة إلى رحيله عن صور، ثم رتب على حصن كوكب الأمير قايماز النجمي في جماعة أخرى من الأجناد فحصروها [٣].

ومن المهام التي استعان فيها السلطان صلاح الدين بالمماليك الأسدية في بداية سنة (٥٨٤هـ/١١٨٨م) عندما خرج السلطان صلاح الدين من عكا ونازل

النصارى ، لكن تطور أمر هذه الجماعة لما قدمت الحملة الصليبية الأولى وأصبح يطلق عليهم فرسان القديس يوحنا ، وصارت لهم مشاركة قوية في محاربة المسلمين والدفاع عن المصالح الصليبية . محمد المطوي : الحروب الصليبية في المشرق والمغرب دار الغرب الإسلامي – تونس ١٩٨٢م ص ٩٦ ، ٩٧ .

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ جـ١٠ ص ١٦٢.

(٢) ابن واصل : المصدر السابق جـ٢ ص ٢٤٦.

(٣) ابن الأثير:الكامل في التاريخ جـ١٠ ص ١٦٢. ابن واصل : مفرج الكروب جـ٢ ص ٢٤٧.

كوكب وحاصرها ولكنه لم يتمكن من فتحها لمنعتها وحصانتها ، لأنها كانت تحتاج إلى حصار طويل ، فأسند أمرها إلى الأمير صارم الدين قايماز النجمي في جماعة من الجند ، ثم وجه إلى الكرك والشوبك الأمير سعد الدين كمشبا الأسدي [١].

وذكر عماد الدين الكاتب الأصفهاني في معرض حديثه عن حصار سعد الدين الأسدي للكرك والشوبك : "وأمده السلطان صلاح الدين بأمراء يساعدونه في الحفظ واليزك ، فأقام على كل قلعة من يكفي لمحاصرتها ، وبقي بمصابرتها ، ويلبث في مقابلتها ، ولا يعبث بمقاتلتها ، فأنها تبقى على قوتها ما لم تقو من قوتها ، وتدوم على طغيانها ما لم يذل عز طاغوتها فلما رتب السلطان هذه المراتب ورب هذه المآرب أقام حتى وثق باستمرارها وتحقق حق استقرارها " [٢].

واستمر الأمير سعد الدين كمشبغا الأسدي على حصار الكرك مدة طويلة وبإحكام شديد حتى نفدت المؤن لدى الصليبيين لدرجة أنهم أكلوا دوابهم ، ثم راسلهم الملك العادل الذي كان حينذاك مقيماً بتبنين[٣] في قوة من الجند من أجل تسليم القلعة وانتهى الأمر بتسلمها مع الحصون القريبة منها مثل الشوبك وهرمز[٤] وعدة حصون أخرى ، وكان ذلك في رمضان من سنة (٥٨٤هـ/١١٨٨م) [٥].

دور الأسدية في الحملة الصليبية الثالثة:

(١) ابن واصل : المصدر السابق جـ٢ ص ٢٥٢، المقريزي : السلوك جـ ١ ص٢١٣.

(٢) الفتح القسي في الفتح القدسي ص ١١٤.

(٣) تبنين: بلدة في جبال بني عامر المطلة على بانياس بين صور ودمشق . ياقوت : معجم البلدان جـ ٢ ص ١٤.

(٤) هرمز : قلعة بوادي موسى بين القدس والكرك . ياقوت : معجم البلدان جـ ٥ ص ٤٠٢.

(٥) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٢ ص٢٧٢ ،٢٧١،المقريزي :السلوك جـ١ ص ٢١٤

كان للمماليك الأسدية دور بارز في قتال الصليبيين أثناء الحملة الصليبية الثالثة لا يقل أهمية عن تلك الأدوار التي قاموا بها في المعارك السابقة ، فمنذ أن قام الصليبيون بمهاجمة عكا رحل إليها السلطان صلاح الدين في الثالث عشر من رجب سنة(٥٨٥هـ/١١٨٩م) ، وتلاحقت به العساكر الإسلامية ، بيد أن الصليبيين كانوا قد استفحل أمرهم وحاصروا البلد من جميع الجهات الأمر الذي حال دون دخول الجيش الإسلامي فيها ، ولم يكن بيد السلطان صلاح الدين سوى القيام بالهجوم على الصليبيين في مستهل شهر شعبان من نفس السنة ، إلا أنه لم يستطع تحقيق أي نصر، ودارت في اليوم التالي معركة حامية الوطيس انهزم فيها الصليبيون وانفتح الطريق إلى عكا ، ودخل بعدها السلطان صلاح الدين إلى عكا ، وأدخل إليها من أراد من الرجال وما أراد من الذخائر والأموال والسلاح وغير ذلك ، وقتل من الصليبيين في هذا اليوم عدد كبير ، ثم إن المسلمين قاموا في السادس شعبان عازمين على بذل جهدهم واستنفاد وسعهم في استئصالهم فتقدموا على تعبيتهم فرأوا الصليبيين ملتزمين الحيطة والحذر وشرعوا في حفر خندق يمنع من الوصول إليهم فألح المسلمون عليهم في القتال فلم يتقدم الصليبيون اليهم فلما رأى المسلمون ذلك رجعوا ، ووقعت وقعة أخرى في الثامن من شعبان عندما خرج الصليبيون من مخيمهم ، فلما رأوا المسلمين رجعوا ، فلحقهم المسلمون ، وقتلوا منهم عددًا كبيرًا [١].

ثم إن جماعة من العرب بلغهم أن الصليبيين يخرجون من الناحية الأخرى إلى الاحتطاب وغيره من أشغالهم فكمنوا لهم في معاطف النهر ونواحيه سادس عشر شعبان فلما خرج جمع من الصليبيين على عادتهم حملت عليهم العرب فقتلوهم عن آخرهم وغنموا ما كان معهم وحملوا الرؤوس إلى صلاح الدين فأحسن

(١) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٢ ص ٢٩٣.

إليهم وأعطاهم الخلع وعرفت هذه الوقعة بوقعة العرب [١] ، ووقعت بعد ذلك عدة مواقع بين الصليبيين وأهل عكا ، حيث لم يمض يوم إلا ويحدث فيه اشتباك بين الفريقين [٢].

ولكن أهم المعارك التي وقعت بين المسلمين والصليبيين أثناء الحملة الصليبية الثالثة هي الموقعة العظمى التي عرفت بموقعة "مرج عكا" في الحادي والعشرين من شعبان سنة (٥٨٥هـ/١١٨٩م) والتي ذكرت المصادر التاريخية أن مجموعة من المماليك الأسدية كان لهم دور بارز فيها ، فقد كان كبار الأسدية مثل: الأمير سيف الدين يازكوج الأسدي ، وأرسلان بغا الأسدي بقواتهما الذين يضرب بهم المثل في أواخر ميسرة الجيش الإسلامي ، وكان في مقدمة القلب القائد والفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري الأسدي ومعه قواته من الأسدية [٣]

أما بالنسبة للسلطان صلاح الدين فكان يطوف بنفسه على الجند ويحثهم على القتال، وفي ذلك اليوم دارت رحى معركة عنيفة ثبتت فيها ميسرة الجيش الإسلامي ؛ حيث أنها لم يحدث عليها هجوم عنيف في ذلك اليوم مثل ما حدث مع الميمنة [٤] وكان للميسرة – والتي شكل بعض الأسدية جزءًا منها – أثر كبير في انتصار المسلمين في تلك الموقعة ، حيث أظهروا بطولات تفوق الوصف في هذه الموقعة ، وفي هذا الصدد يذكر العماد الكاتب : "" وكان في ميسرتنا عسكر سنجار

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ جـ١٠ ص ١٨٥، ابن واصل : المصدر السابق جـ ٢ ص ٢٩٤ ، المقريزي : السلوك جـ ١ ص ٢١٥ ، ٢١٦.

(٢) ابن واصل : المصدر السابق جـ٢ ص ٢٩٤.

(٣) ابن شداد : النوادر السلطانية ص ١٧٢ ، أبو شامة : الروضتين جـ ٤ ص ٥٢ ابن واصل : المصدر السابق جـ٢ ص ٢٩٤-٢٩٦، العيني : عقد الجمان جـ ١ ص ١٢٥.

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٢ ص ٢٩٦ ، ٢٩٧.

والأسدية ، فما زلوا ولا زالوا ، بل وصلوا وصالوا ، وحملت عليهم ميمنة الفرنج ، فكأنما مرت بالجبال الرياح وخالطوهم فودعت أجسامها الأرواح ، وعاد من كان الميمنة الإسلامية بالبعد ، حاد المضاء ماضي الحد ، مثل تقي الدين ، وقايماز النجمي والحسام بن لاجين ، ومن ثبت من أبطال المجاهدين فعكروا على ميسرة الفرنج فشلوها وأنهلوها من دمائها وأعلوها ، ولفوها وفلوها، ولقوها وأقلوها ، ووضعوا فيها السيوف وأوضعوا إليها الحتوف ، وأوسعوها قتلاً ذريعاً، وما أبطأ الوقت حتى صار مقدامها صريعاً سريعاً " (١).

ومن خلال رواية العماد الكاتب يتضح الدور الذي بذله الأسدية في هذه الموقعة على الرغم من أن جزءًا منهم كان في مصر ضمن العسكر المصري الذي لم يكن موجودًا في هذه المعركة بحسب رواية ابن الأثير، حيث أورد قبل حديثه عن معركة مرج عكا فذكر : " بقي المسلمون إلى العشرين من شعبان كل يوم يغادون القتال مع الفرنج ويراوحونه والفرنج لا يظهرون من معسكرهم ولا يفارقونه ثم إن الفرنج اجتمعوا للمشورة فقالوا إن عسكر مصر لم يحضروا الحال مع صلاح الدين هكذا فكيف يكون إذا حضروا والرأي اننا نلقي المسلمين غدا لعلنا نظفر بهم قبل اجتماع العساكر والأمداد إليهم وكان كثير من عسكر صلاح الدين غائبا عنه بعضهم مقابل أنطاكية ليردوا غائلة البيمند صاحبها عن أعمال حلب وبعضهم في حمص مقابل طرابلس ليحفظ ذلك الثغر أيضا وعسكر في مقابل صور لحماية ذلك البلد وعسكر بمصر يكون بثغر دمياط والاسكندرية وغيرهما والذي بقي من عسكر مصر كانوا لم يصلوا لطول بيكارهم كما ذكرناه قبل وكان هذا مما أطمع الفرنج في الظهور إلى قتال المسلمين" (٢).

(١) الفتح القسي ص ١٦٩.

(٢) الكامل في التاريخ جـ١٠ ص ١٨٦.

ويُفهم من رواية ابن الأثير أن الصليبيين كانوا يحسبون حسابًا للعسكر المصري ، ويعرفون قدرتهم وشجاعتهم ، وأن غياب العسكر المصري، وبقية العساكر التي ذكرها ابن الأثير كان السبب في خروج الصليبيين لقتال المسلمين .

وقد استشهد في هذا الموقعة عدد من المماليك الأسدية منهم ظهير الدين الأسدي أخو الفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري ، وفي ذلك يذكر ابن واصل نقلاً عن ابن شداد :" ولقد رأيت الفقيه عيسى وهو جالس يضحك والناس يعزونه ، وهو ينكر عليهم وهو يقول : هذا يوم الهنا لا يوم العزا " (١) .

ولما انتهت الموقعة أمر السلطان صلاح الدين بالانتقال إلى الخروبة ، فانتقل في رابع شهر رمضان من سنة (٥٨٥هـ/١١٨٩م) ، وأمر أهل عكا بإغلاق أبوابها ، فشرعوا في حفر خندق على معسكرهم حول عكا من البحر إلى البحر ، وأخرجوا ما كان في مراكبهم من آلات الحصار، وعمقوا الخندق عليهم ، وبنوا حولهم سورًا ، ورتبوا عليه الرجال ، فانقطع طريق المسلمين إلى عكا نهائيًا (٢) وبعد ذلك استمر السلطان صلاح الدين في جمع العساكر وهو بالخروبة حتى عاشر رمضان من سنة (٥٨٥هـ/١١٨٩م)(٣).

وكثيراً ما تذكر المصادر التاريخية شجاعة الأسدية أثناء الحملة الصليبية الثالثة ، ومن ذلك عندما خرج الصليبيون للقاء المسلمين بعد أن تركوا بعكا حامية وذلك في الحادي عشر من شوال سنة (٥٨٦هـ/١١٩٠م) ، وجرى قتال بين الطرفين لمدة يومين ورماهم المسلمون بالنشاب والدبابيس والرماح ، ولما أحسوا

(١) مفرج الكروب جـ ٢ ص ٢٩٩.

(٢) المصدر نفسه جـ٢ ص ٣٠٣ .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٢ ص ٣٠٣ .

بالعجز ، انسحبوا من المعركة، وفي هذه المعركة قاتل إياز الطويل وسيف الدين يازكوج الأسدي قتالاً عظيما، وأبليا بلاء حسناً[١].

وفي منتصف شوال من سنة (٥٨٦هـ /١١٩٠م) وصل الملك العادل من مصر بالعساكر[٢] الذي كان يضم بقية المماليك الأسدية ، وفي ذلك يذكر ابن الأثير: " في منتصف شوال وصلت العساكر المصرية ومقدمها الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب فلما وصل قويت نفوس الناس به "[٣].

ومن المعارك التي وقعت أثناء الحملة الصليبية الثالثة " الوقعة العادلية" في العشرين من جمادى الآخرة سنة (٥٨٦هـ/١١٩٠م) والتي كان لعسكر مصر أثر كبير في الانتصار فيها ، وذلك عندما علم العادل بهجوم الصليبيين صاح بالناس وحمل بنفسه وحمل لحملته من كان يليه من الميمنة وعسكر الموصل فهجموا على العدو حتى انكسر الصليبيون ، وتقدم بعد عسكر الموصل عسكر مصر وكان قائدهم الأمير سنقر الحلبي ، ولم يستمر الأمر سوى ساعة حتى استطاع المسلمون رد الصليبيين [٤].

ولم تقتصر مشاركة الأسدية في الحرب عند عكا من الخارج فقط بل كان الأمير بهاء الدين قراقوش الأسدي واليًا على عكا ، وكان السلطان صلاح الدين قد ولاه عكا قبل استيلاء الصليبيين عليها ، كما كان بعض الأسدية ضمن القوات التي أدخلها صلاح الدين إلى عكا ، وذلك عندما هجم الشتاء وعصفت الرياح خاف الصليبيون على مراكبهم التي عندهم لأنها لم تمكن من الميناء فسيروها إلى بلادهم

(١) ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٢٥٢، ابن واصل : المصدر السابق جـ٢ ص٣٤٤.
(٢) ابن واصل : المصدر السابق جـ٢ ص ٣٠٥ .
(٣) الكامل في التاريخ جـ١٠ ص ١٨٩.
(٤) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ص ٣٢٦.

صور والجزائر، فانفتح الطريق إلى عكا في البحر ، فأرسل أهلها إلى صلاح الدين يشكون الضجر والملالة والسآمة ، وكان قائد الجند بها الأمير حسام الدين أبو الهيجاء السمين فأمر صلاح الدين باستبدال من بعكا من القوات بغيرهم وذلك بهدف التخفيف عليهم والتخلص من الملل ، وأمر أخاه الملك العادل بمباشرة ذلك فانتقل إلى جانب البحر ونزل تحت جبل حيفا وجمع المراكب والشواني وكلما جاءه جماعة من العسكر سيرهم إليها وأخرج عوضهم فدخل إليها عشرون أميرا وكان بها ستون أميرا فكان الذين دخلوا قليلا بالنسبة إلى الذين خرجوا ، وكان من جملة الأمراء الذين دخلوا إلى عكا سيف الدين المشطوب وعز الدين أرسل مقدم الأسدية بعد جاولي الأسدي ، وغيرهم ، وكان دخولهم عكا أول سنة (٥٨٧هـ/ ١١٩١م) على الرغم من أن بعض الأمراء قد أشار على السلطان صلاح الدين بعدم استبدال الرجال ، وأن يكتفي بإرسال المؤن والذخائر إليهم [١].

وتم استبدال جميع من بداخل عكا ما عدا بهاء الدين قراقوش الأسدي، وكان بها حوالي عشرين ألفاً فرأى السلطان أن يفسح لهم المجال في الخروج رفقاً بهم من أجل إراحتهم حيث أنهم قد تعبوا وضجروا وصبروا ، فاستبدل السلطان غيرهم [٢] كما أن الأمير بهاء الدين قراقوش كان على مراسلة دائمة بالسلطان وبذل جهداً كبيرا من أجل الدفاع عن عكا على الرغم من عظم الآلات التي أعدت للحصار من الصليبيين [٣].

وذكر ابن شداد : "إن عكا كانت قد احتوت على جميع سلاح الساحل والقدس ودمشق وحلب ومصر وجميع البلاد الإسلامية واحتوت على كبار من أمراء العسكر

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ جـ ١٠ ص ١٩٨ ،١٩٩.

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ص ٣٤٥.

(٣) المصدر نفسه جـ ٢ ص ٣٣١، ٣٣٤ ، العيني: عقد الجمان جـ ٢ ص ١٥٤.

وشجعان الإسلام كسيف الدين المشطوب وبهاء الدين قراقوش وغيرهما وكان قراقوش ملتزماً بحراستها منذ نزل العدو عليها"[١].

وعلى الرغم من ذلك فقد هرب بعض المماليك الأسدية من عكا ، ولم يصمدوا للحصار ، وخافوا على أنفسهم من القتل على الرغم من أن المصادر التاريخية كانت تصف هؤلاء الهاربين بالشجاعة والشهامة ، والذي يدل على ذلك ما أورده ابن الأثير وابن واصل قبل استيلاء الصليبيين على عكا عندما وصلت رسالة من البلد إلى السلطان يخبرون بعجزهم عن مقاومة العدو وأنهم ضعفوا وأوشكوا على التسليم ، ويعلمونه بهرب جماعة خوفاً من الصليبيين ، حيث إنهم أخذوا قارباً صغيراً وركبوا فيه ليلاً وخرجوا إلى المعسكر الإسلامي ، ومنهم عز الدين أرسل الأسدي وحسام الدين تمرتاش بن الجاولي وسنقر الوشاقي الأسدي، فأما أرسل وسنقر الأسدي فتغيباً خوفاً من السلطان، وأما ابن الجاولي فظفر به ورمي في السجن وقطع السلطان إقطاعه [٢] .

وفي ذلك يروي العماد الأصفهاني بعد ما ذكر فشل المفاوضات بين سيف الدين علي المشطوب وملك فرنسا ، والتي كان الهدف منها أن يسلم البلد ويخرج الناس آمنين ، حيث ذكر: "ولما عُرف رجوع المشطوب ، ولم يظفر بالغرض المطلوب ، قال جماعة من الأمراء قد تضجروا بما هم فيه من التعب والعناء : هذا الأمير الكبير ، والمستشار والمشير، قد اشتغل باله ، فسواه ما باله ، وعمروا بركوسًا ، ورأوا في هربهم رأيًا منكوسًا ، وربحًا في دار البقاء مبخوسًا وذلك ليلة الخميس التاسع وقربوا عليهم الأمر الشاسع ، وجاؤوا إلى العسكر مختفين ، ومن رفقائهم في نسب الوفاء والوفاق منتفين ، فنمى إلى السلطان الخبر بهرب الجماعة

(١) ابن واصل : المصدر السابق جـ ٢ ص ٣٤٥.

(٢) ابن الأثير: الكامل جـ ١٠ ص٢٠٦،ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٢ ص ٣٥٧.

، وأنهم خرجوا لله وله عن الطاعة ، وأنهم جبنوا عن بذل الاستطاعة ، وخفضوا عنهم صيت الشجاعة ، وأبدلوا الإضاءة بالظلمة والحفظ بالإضاعة ، وكان فيهم من الأمراء المعروفين وذوي الشهامة الموصوفين عز الدين أرسل ، وهو الذي كان المثل بشهامته يرسل ، وحسام الدين بن تمرتاش بن جاولي ، وهو شاب أول ما توفى والده وجاولي ، وسنقر الوشاقي من الأسدية الأكابر ومقدمي العساكر ، وكل منهم محظوظ بالإقطاع الوافر ، فقطع السلطان إقطاعهم وأقطعها ، وحبس عنهم عند الرضا بعد مدة مديدة بشاشة وجهه ومنعها واستعان أرسل بالأسدية ثم بالملك الأفضل ، المفضل المؤمل ، وتوسل ابن جاولي بالملك العادل ، وكلهم توسل بفضل الأجل الفاضل ، فلم تعد معيشتهم ولم تعذب عيشتهم ، وعادوا ممقوتين ، وبحدود ألسن الذم منحوتين ، وبضعف القلب وقوة الخور منعوتين "[1].

ولكن هذا لا يقلل من أهمية الدور الكبير الذي قام به الأسدية في أثناء الحملة الصليبية الثالثة والبطولات التي أبداها الفقيه ضياء الدين الهكاري وبهاء الدين قراقوش ، وسيف الدين يازكوج وغيره.

ومن تلك الأدوار والبطولات التي قام بها الأسدية أن الأمير سيف الدين يازكوج الأسدي وجنده الأسدية كانوا مرافقين للملك الأفضل ابن السلطان صلاح الدين مع قوة الاستطلاع التي خرجت لمتابعة خط سير الجيش الصليبي بقيادة ريتشارد قلب الأسد الذي وضع خطة تقضي باسترداد المدن الواقعة على شاطئ فلسطين من عكا حتى عسقلان قبل أن يتوجه إلى الداخل ليسترد بيت المقدس ، حيث إن الصليبيين لما فرغوا من أمر عكا خرجوا في الثامن والعشرين من رجب (٥٨٧هـ/١١٩١م) ، وساروا مستهل شعبان نحو حيفا مع شاطئ البحر

(١) الفتح القسي ص ٢٦٦.

لا يفارقونه فلما سمع صلاح الدين برحيلهم نادى في عسكره بالرحيل فساروا ، وكانت القوة الاستطلاعية التي يقودها الملك الأفضل ابن السلطان صلاح الدين ومعه سيف الدين يازكوج الأسدي وعز الدين جورديك وعدة من شجعان الأمراء قد ضيقت الخناق على الصليبيين في مسيرهم ورموهم بالسهام وقتلوا منهم جماعة وأسروا جماعة ، وأرسل الأفضل إلى والده يستمده ويعرفه الحال فلما قاربوا قيسارية لاصقهم المسلمون وقاتلوهم أشد قتال فقتلوا منهم الكثير ووقعت الوقعة التي عرفت بوقعة " الكمين " وقتل من الصليبيين قائد كبير كما قتل من المسلمين مملوك لصلاح الدين اسمه أياز الطويل وهو من الموصوفين بالشجاعة [1].

وأورد ابن شداد هذه الوقعة فذكر : " ولما كان سادس عشر شوال أمر السلطان الحلقة أن كمنت للعدو في بطون أودية هناك واستصحبوا جماعة من العرب فلما استقر الكمين في موضعه ظهرت العرب على عادتها في مناوشتها العدو وكان الصليبيون يخرجون للاحتشاش والاحتطاب قريباً من مخيم العرب فضربوا عليهم ووقع الحرب وثار الصياح وسمع العدو فركب منهم جمع من الخيالة وطلبوا جهة العرب انهزم العرب بين أيديهم إلى جهة الكمين والعدو يتبعهم طمعاً حتى قاربوا الكمين فخرج الكمين عليهم وصاحوا بهم صيحة الرجل الواحد فانهزموا بين أيديهم نحو خيامهم ووصل الخبر للصليبيين فركب منهم خلق عظيم وقصدوا نحو الوقعة والتحم القتال واشتد الأمر وقتل جمع من الطائفتين وأسر وجرح من الصليبيين وأخذ المسلمون منهم خيل كثيرة وكان سبب انفصال الحرب أن السلطان أحس بهذه الوقعة فأنفذ أمراء أخر أسلم وسيف الدين يازكوج ومن يجري مجراهما ردءًا للمسلمين وقال: إذا رأيتم الغلبة على الكمين فاظهروا فلما رأوا الكثرة من جانب العدو وخرجوا بخيلهم ورجلهم ولما رأى العدو الأطلاب الإسلامية قد صوبت

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ جـ ١٠ ص ٢٠٧ ، ٢٠٨ .

نحوه أعنة خيلها ولوا الأدبار نحو خيامهم والسيف يعمل في أقفيتهم حتى دخلوا الخيام ، وانتهت الحرب قبيل الظهر وكان السلطان قد ركب متشوّفاً أخبار الكمين وقتل من المسلمين حوالي ستين رجلا ، وجرح جماعة منهم إياس المهراني وكان شجاعاً معروفاً واستأمن اثنان بخيولهما وعدتهما وعاد السلطان إلى خيمته فرحاً مسروراً معرضاً من قتل فرسه، متلطفاً بالجريح، مترحماً على الشهيد"(١).

وبعد ذلك وقعت بين المسلمين والصليبيين موقعة أرسوف في الرابع عشر من شعبان سنة (٥٨٧هـ/١١٩١م) انتصر فيها الصليبيون (٢).

وفي الثالث من المحرم سنة (٥٨٨هـ/١١٩٢م) رحل الصليبيون إلى عسقلان واجتهدوا في عمارتها (٣) ، حيث إن السلطان قد أمر بتخريبها لئلا تقع في يد الصليبيين بعد أن عجز الجيش الإسلامي عن حفظها، وذلك بعد أن استشار الأمراء في ذلك (٤) ، ورأى ريتشارد قلب الأسد دخاناً على بعد فقصده وكان هناك جماعة من الأسدية ، وسيف الدين يازكوج الأسدي ، وعلم الدين منصر، وكانوا قد نزلوا متفرقين في موضعين ، فوصل إليهم وقت المغرب ،فلما هجم على أحد الفريقين ركب الفريق واشتبك معه في معركة حتى ركب الفريق الآخر فدافعوهم وساقوا أمامهم أثقالهم ، وقد ربح الصليبيون أثقالهم ونجوا ولم يقتل من المسلمين إلا أربعة (٥) ، وفي هذا الصدد يذكر المقريزي في سنة (٥٨٨هـ/١١٩٢م): " في ثالث

(١) النوادر السلطانية ص ٢٩٨ ، ٢٩٩.

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ص ٣٦٦ ، ٣٦٧ ، عاشور : الأيوبيون والمماليك ص ٧٠

(٣) العماد الكاتب الأصفهاني : الفتح القسي ص ٢٧٩ ، ابن واصل : المصدر السابق جـ ٢ ص ٣٨٠ ، المقريزي : السلوك جـ ١ ص ٢١٨.

(٤) ابن واصل : المصدر السابق جـ ٢ ص ٣٦٩ ،٣٧٠.

(٥) أبو شامة : الروضتين جـ ٤ ص ١٧٥ ، ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ص ٣٨٠.

المحرم : نزل الفرنج على ظاهر عسقلان ، لقصد عمارتها فما مكنوا، وواقعهم جماعة من الأسدية منهم يازكج وغيره ، وتوالت الوقائع بينهم"[١].

ويبدو أن هؤلاء الأسدية كانوا مكلفين من السلطان صلاح الدين ضمن الفرق الاستطلاعية التي كانت تراقب وترصد تحركات الصليبيين .

كما كان أمراء الأسدية ضمن المجلس الاستشاري للسلطان صلاح الدين يجتمع بهم لمناقشة الأمور الجسيمة ، ولحثهم على الجهاد ، ومن ذلك المجلس الذي عقده مع الأمراء وأرباب المشورة بعد موقعة مرج عكا الذي – سبق الحديث عنها – والذي رأى فيه أغلبية المجلس الانتقال إلى الخروبة [٢] .

وعندما عزم الصليبيون على حصار بيت المقدس ، ووصل الخبر إلى صلاح الدين قسم أسوار القدس على الأمراء وأفسد المياه بظاهر القدس لكي لا يبقى حول القدس ما يشرب منه ، وفي ليلة الخميس تاسع عشر جمادى الآخرة سنة (٥٨٨هـ/١١٩٢م) أجتمع السلطان مع أمراء الجيش وكان من ضمنهم المماليك الأسدية جميعهم ، وأمر القاضي بهاء الدين بن شداد أن يحثهم على الجهاد ، ثم خاطبهم السلطان صلاح الدين وحثهم على الجهاد فأجابوا جميعهم إلى نصرته حتى الموت [٣] .

وفي هذا الصدد يذكر ابن شداد : " ولما كانت ليلة الخميس تاسع عشر جمادى الآخرة استحضر السلطان الأمراء عنده ، فحضر الأمير أبو الهيجاء السمين بمشقة عظيمة وجلس على كرسي في خيمة السلطان، وحضر المشطوب والأسدية بأسرهم وجماعة الأمراء ثم أمرني أن أكلمهم وأحثهم على الجهاد، فذكرت ما يسّره

(١) المقريزي : السلوك جـ ١ ص ٢٢٣.

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ص ٣٠٤.

(٣) أبو شامة : الروضتين جـ ٤ ص ١٧٩ ، ابن واصل : المصدر السابق جـ ٢ ص ٣٨٦.

الله من ذلك. وكان مما قلته أن النبي صلّى الله عليه وسلّم لما اشتد به الأمر بايعه الصحابة رضي الله عنهم على الموت في لقاء العدو، ونحن أولى من تأسّى به صلّى الله عليه وسلّم، والمصلحة الاجتماع عند الصخرة والتحالف على الموت، ولعل ببركة هذه النية يندفع هذا العدو، فاستحسن الجماعة ذلك ووافقوا عليه، ثم شرع السلطان بعد أن سكت زماناً في صورة مفكر والناس سكوت كأن على رؤوسهم الطير فقال : الحمد لله والصلاة على رسول الله، اعلموا أنكم جند الإسلام اليوم ومنعته، وأنتم تعلمون أن دماء المسلمين وأموالهم وذراريهم معلقة بذممكم، وأن هذا العدو ليس له من المسلمين من تلقاه إلاّ أنتم، فإن وليتم بأنفسكم والعياذ بالله طوى البلاد طي السجل للكتاب وكان ذلك في ذمتكم فإنكم أنتم الذين تصدّيتم لهذا وأكلتم مال بيت المال، فالمسلمون في سائر البلاد متعلقون بكم والسلام. فانتدب لجوابه سيف الدين المشطوب وقال: يا مولانا نحن مماليكك وعبيدك، وأنت أنعمت علينا وكبرتنا وعظمتنا وأعطيتنا وليس لنا إلا رقابنا وهي بين يديك، والله لا يرجع أحد منا عن نصرتك إلى أن نموت ، فقال الجماعة مثل ما قال ، فانبسطت نفسه بذلك المجلس وطاب قلبه"[1] ولكن كفى الله المؤمنين شر الصليبيين في ذلك الوقت ولم يذهبوا إلى القدس ، ورجعوا إلى الرملة [2].

كما شارك الأسدية في حصار يافا والاستيلاء عليها ، وذلك عندما رحل السلطان صلاح الدين من القدس في العاشر من رجب سنة (٥٨٨هـ/١١٩٢م) لما علم أن الصليبيين رحلوا طالبين بيروت فبرز من القدس إلى منزلة يقال لها الجيب ثم حضر الملك العادل من البلاد الفراتية في صباح اليوم التالي ، فدخل الصخرة وصلى عندها ، ثم توجه خلف السلطان صلاح الدين ، وكان صلاح الدين قد رحل

(١) النوادر السلطانية ص ٣٢١.

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ص ٣٩٠.

من الجيب إلى بيت نوبة وبعث إلى العسكر في القدس يحثهم على الخروج واللحاق به ثم رحل في يوم الأحد الثالث عشر من رجب إلى الرملة ثم سار حتى أتى بازور وبيت جبرين حتى قارب يافا ثم عاد إلى منزلته وأقام بها بقية يومه وجمع أرباب مشورته وشاورهم في النزول على يافا واتفق الرأي على ذلك(١).

ولما كان صباح الخامس عشر رجب من سنة(٥٨٨هـ/١١٩٢م) رحل السلطان صلاح الدين متجهًا إلى يافا فخيم عليها ورتب العساكر ، وفي اليوم التالي زحف بالجيش الإسلامي إليها ، ورماها بالمنجنيقات، وقاتل الجيش الإسلامي فيها قتالًا شديدًا ، وعلى الرغم من استبسال أهلها في الدفاع عنها إلا أنها سقطت عنوة في يد المسلمين ، ثم سار السلطان صلاح الدين إلى النطرون ثم إلى القدس فرتب أوضاعها وعاد إلى النطرون وجاءته العساكر وكان من ضمن القادمين العسكر المصري فخرج السلطان إلى لقائهم وكان فيهم مجد الدين هلدري وسيف الدين يازكوج الأسدي ومعه المماليك الأسدية ، وكان الجيش المصري تحت قيادة الملك المؤيد مسعود ابن السلطان صلاح الدين رافعين الأعلام والبيارق والزينة فكان يوما مشهودا ، ثم أنزلهم السلطان صلاح الدين عنده ، بعدها ساروا إلى منازلهم (٢).

وخلاصة القول أن الحملة الصليبية الثالثة انتهت بعقد هدنة بين الطرفين مدتها ثلاث سنوات وستة أشهر أولها أيلول الموافق الحادي والعشرين من شعبان (٥٨٨هـ/١١٩٢م) وهو المعروف بصلح الرملة (٣) وكان مقدمو الأسدية ضمن

(١) ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٣٢٩ ، ٣٣٠.

(٢) ابن شداد: المصدر السابق ص ٣٢٩- ٣٣٦، أبو شامة : الروضتين جـ١ ص١٨٩ ، ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ص ٤٠١ ،العيني : عقد الجمان جـ ٢ ص ٢٤٤.

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ص ٤٠٤.

الحاضرين الذين حلفوا للصليبيين مع ملوك الأيوبيين ، وقد أورد ابن واصل الذين حلفوا بعد أن ذكر ملوك الأيوبيين ، فقال : " وغيرهم من المقدمين الكبار"[١].

وذهب صلاح الدين بعد ذلك إلى القدس فرتب أحوالها ثم رحل إلى نابلس ثم طبرية وهناك لقي قراقوش الأسدي بعد أن خلص من الأسر في عكا وفرح السلطان صلاح الدين به فرحًا شديدًا [٢] ، وقد ذكر عنه العيني : " أنه كانت له حقوق كثيرة على السلطان وعلى الإسلام" [٣] ، ومضى مع السلطان إلى دمشق ثم سافر قراقوش إلى مصر ، وبعد ذلك سمح السلطان صلاح الدين للعساكر الإسلامية بالعودة إلى بلادهم [٤] .

واستمر السلطان صلاح الدين مقيماً بدمشق حتى توفى في السابع والعشرين من صفر(٥٨٩هـ/١١٩٣م) [٥] .

الوظائف التي تولاها المماليك الأسدية في عهد صلاح الدين

عمل صلاح الدين الأيوبي على إحكام قبضته على مقدرات الدولة بعد أن قام بالعديد من الاصلاحات المالية والإدارية ، ومن الإجراءات التي قام بها تولية مناصب الدولة لأهل الثقة والكفاءة ، وكانت المواقف الذي وقفها المماليك الأسدية بجانب صلاح الدين الأيوبي في الشؤون الحربية والسياسية سبباً أساسياً في ثقته فيهم ؛ لذا كان يولي بعضهم العديد من الوظائف ، وهي :

نيابة الغيبة

(١) المصدر نفسه والصفحة نفسها .

(٢) العيني : المصدر السابق جـ ٢ ص ٢٤٩.

(٣) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر جـ ٣ ص ٨٣.

(٤) أبو شامة : المصدر السابق جـ ٤ ص ١٩٩ ، المقريزي : السلوك جـ١ ص ٢٢٤.

(٥) ابن واصل : المصدر السابق جـ ٢ ص ٤١٩.

ذكر القلقشندي :"أما نائب الغيبة: وهو الذي يترك إذا غاب السلطان والنائب الكافل، وليس إلا لإخماد الثوائر وخلاص الحقوق " [١] ، فقد أناب السلطان صلاح الدين عنه بالديار المصرية الأمير بهاء الدين قراقوش الأسدي ، وفي ذلك يذكر العيني : " وناب عنه مدة بالديار المصرية ، وفوض أمورها إليه واعتمد في تدبير أحوالها عليه" [٢] حيث إن السلطان صلاح الدين كان يثق به ويعول عليه في مهماته [٣] ، وفي هذا الصدد يذكر الذهبي : " وما كان صلاح الدين ليستنيبه لولا وثوقه بعقله ومعرفته "[٤]

الأستادارية

والأستادار بضم الهمزة :لقب يطلق على القائم على الشئون الخاصة للسلطان [٥] وذكر القلقشندي أن : "موضوعها التحدّث في أمر بيوت السلطان كلها من المطابخ والشّراب خاناه والحاشية والغلمان وهو الذي يمشي بطلب السلطان ويحكم في غلمانه وباب داره ، وإليه أمر الجاشنكيرية ، وإن كان كبيرهم نظيره في الإمرة من ذوي المائتين ، وله حديث مطلق وتصرف تامّ في استدعاء ما يحتاجه كلّ من في بيت السلطان من النفقات والكساوي وما يجري مجرى ذلك للمماليك ، وغيرهم "[٦].

(١) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء ،المطبعة الأميرية بالقاهرة ١٩١٤م جـ ٤ ص ١٧، ١٨.
(٢) العيني : عقد الجمان جـ ٣ ص ١٥١.
(٣) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ١٥٩.
(٤) تاريخ الإسلام جـ ٤٢ ص ٣١٢.
(٥) محمد أحمد دهمان : معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي ، ص ١٤ ، ١٥.
(٦) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء جـ ٤ ص ٢١.

وكان صلاح الدين قد عين الأمير بهاء الدين قراقوش الأسدي أستادار العاضد قبيل وفاته [١] ، ويبدو أن ثقة صلاح الدين كانت في موضعها ؛ حيث إنه حفظ ما في القصر من خزائن ودفائن حتى تسلمها صلاح الدين ، فلم يخرج من القصر شيئاً أو يخرج منه إلا بمرأى ومسمع منه ، كما أسند إليه صلاح الدين أمر أهل الخليفة العاضد وأولاده بعد أن احتاط عليهم ، وخصص لهم مكاناً خارج القصر وقرر لهم ما يكفيهم [٢].

ولكن مما يؤخذ على الأمير بهاء الدين قراقوش الأسدي في أثناء توليه هذه الوظيفة تسببه في بيع كتب القصر الفاطمي بأثمان زهيدة نظراً لعدم خبرته بقيمتها، وفي ذلك يذكر أبوشامة نقلاً عن العماد الكاتب : " وكان لبيع الكتب في القصر كل أسبوع يومان ، وهي تباع بأرخص الأثمان وخزائنها في القصر مرتبة البيوت ، مقسمة الرفوف ، مفهرسة بالمعروف ، فقيل للأمير بهاء الدين قراقوش متولي القصر والحال والعاقد للأمر : هذه الكتب قد عاث فيها العُثّ ، وتساوى ثمينها والغث ، ولا غنى عن تهويتها ونفضها ، وإخراجها من بيوت الخزانة إلى أرضها، وهو تركي لا خبرة له بالكتب ، ولا دربة له بأسفار الأدب ، وكان مقصود دلالي الكتب أن يوكسوها ويخرموها ويعكسوها ، فأخرجت وهي أكثر من مائة ألف كتاب ، وذكر العماد أيضاً: وكان فيها من الكتب الكبار، وتواريخ الأمصار، ومصنفات الأخبار ، ما يشتمل كل كتاب على خمسين أو ستين جزءاً مجلداً ، إذا فقد منه جزء لا يُخلف أبداً ، فاختلطت واختبطت ، فكان الدلال يخرج عشرة عشرة من كل فن كتباً مبتّرة ، فتُسام بالدون ، وتباع بالهون ، والدلال يعرف كل شدة ، وما فيها من عدة

(١) الذهبي :تاريخ الإسلام جـ٣٩ ص ٣٤ ، ٣٥، ابن تغري بردي :النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ١٨.
(٢) أبو شامة : الروضتين جـ ٢ ، ص ١٢٥، ١٣٦ ، عبد المنعم ماجد : الدولة الأيوبية في تاريخ مصر الإسلامية ، القاهرة ١٩٩٧م ص ٨٦.

ويعلم أن عنده من أجناسها وأنواعها ، وقد شارك غيره في ابتياعها ، حتى إذا لفق كتابًا قد تقوم عليه بعشرة باعه بعد ذلك لنفسه بمائة " [١].

مقدم المماليك الأسدية :

وظيفة المقدم هي مرتبة وظيفية مرموقة ظهرت منذ العصر الأيوبي ، قد يكون صاحبها من العسكريين ، وقد يكون من الموظفين الكبار المتميزين باعتبارات خاصة ، ويضاف إلى هذا اللفظ اسم الوظيفة [٢] ومقدم المماليك الذي يتولى أمر المماليك [٣] وموضوعها التحدث على المماليك السلطانية والحكم فيهم[٤] .

وكانت الفرق الثلاث النورية والأسدية والصلاحية قد أُطلق على رؤسائهم لقب مقدمو المماليك السلطانية [٥] ، ومن الذين تولوا هذه الوظيفة الأمير جاولي الأسدي، [٦] كما تولاها الأمير بهاء الدين قراقوش الأسدي ، حيث ذكر أبو شامة في حوادث سنة (٥٩٧هـ/ ١٢٠١م) في وفاة بهاء الدين قراقوش :" وفيها توفى الأمير بهاء الدين قراقوش ، وهو من القدماء الكرماء ، وشيوخ الدولة الكبراء ، أمير الأسدية ومقدمها"[٧] .

زمام القصر

الزمام: كان عند الفاطميين أحد كبار حاشية الخليفة وهو المسئول عن نساء قصره ، أما في العصرين الأيوبي والمملوكي فكان القائم عليها يعرف بزمام دار او

(١) الروضتين في أخبار الدولتين جـ ٢ ص ٢٩٢

(٢) مصطفى عبد الكريم الخطيب : معجم المصطلحات والألقاب التاريخية ص ٤٠٣.

(٣) دهمان : معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي ص ١٤٢.

(٤) القلقشندي : صبح الأعشى جـ ٤ ص ٢١.

(٥) عبد الرحمن زكي : الجيش المصري في العصر الإسلامي ص ٨٢ ،

(٦) ابن واصل : مفرج الكروب جـ٢ ص ٨٠.

(٧) الروضتين جـ ٤ ص ٢٨٥.

زمام الدور السلطانية ، وهو عندهم من فئة أمراء الطبلخاناه ، اتصل عمله بكل ما له علاقة بالقصور السلطانية ورعاية شئونها ، وهو عادة من كبار المماليك وأمثلهم وجاهة[١]. وذكر القلقشندي : " زمامية الدور السلطانية: وصاحبها من أكبر الخدّام، وهو المعبر عنه بالزّمام، وعادته أن يكون أمير طبلخاناه "[٢].

وذكر بعض المؤرخين: أن صلاح الدين ولَّى بهاء الدين قراقوش زمام قصر الخليفة العاضد ، فقد ذكر أبو شامة نقلًا عن العماد الكاتب : "وكان مُذْ نافق مؤتمن الخلافة وقُتل ، صُرف مَنْ هو زمام القصر وعُزل ووكل بهاء الدين قراقوش بالقصر وجعله زمامه واستنابه مقام نفسه وأقامه "[٣] ، وذكر ابن واصل : " وكَّل صلاح الدين بالقصر بهاء الدين قراقوش الأسدي وجعله زمام القصر مقام مؤتمن الخلافة "[٤] وكذلك ذكر البنداري[٥] ، كما أفرد الذهبي عنوانًا خاصًا وهو: " تعيين قراقوش زمامًا لقصر الخلفاء" [٦] ، وذكر : " ولما قتل مؤتمن الخلافة صُرف من هو هو زمام القصر وصُيَّر زمامه بهاء الدين قراقوش " بينما يذكر العيني : " أن قراقوش صار متحكمًا في القصر " [٧] ويذكر العيني أيضًا: " ولما استقل صلاح

(١) مصطفى عبد الكريم الخطيب : معجم المصطلحات والألقاب التاريخية ، مؤسسة الرسالة – بيروت ١٩٩٦م ص ٢٢٤.

(٢) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء جـ ٤ ص ٢١.

(٣) المصدر السابق جـ ٢ ص ١٢٥.

(٤) مفرج الكروب جـ ١ ص ٢٠٢.

(٥) سنا البرق الشامي ص ٥٨ ، ٥٩.

(٦) تاريخ الإسلام جـ ٣٩ ص ٣٤ ، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ١٨.

(٧) عقد الجمان (العصر الأيوبي) جـ ١ ص ٦٩.

الدين بالديار المصرية جعله زمام القصر" [١] ، ويبدو أن بهاء الدين قراقوش تولى وظيفتي أستادارية العاضد وزمامه.

شد العمائر

وموضوعها أن يكون صاحبها متكلما في العمائر السلطانية مما يختار السلطان إحداثه أو تجديده من القصور والمنازل والأسوار[٢].

ومن المهام التي أسندها صلاح الدين لبهاء الدين قراقوش مهمة الإشراف على عمارة سور القاهرة سنة (٥٦٦هـ/١١٧١م) الذي كان قد تهدم أكثره ، وصار طريقاً لا يرد داخلاً ولا خارجاً [٣]، وأسند إليه – أيضاً – مهمة الإشراف على بناء القلعة على جبل المقطم [٤]، والمعروفة بقلعة الجبل أو قلعة صلاح الدين كما أنه هو الذي بنى القناطر التي بالجيزة وعمر المقس[٥] كذلك أسند إليه عمارة عكا وتحصينها في سنة (٥٨٤هـ/١١٨٨م) بعد فتحها ، وكان صلاح الدين قد استدعاه من مصر فقدم عليه وهو بكوكب ففوض إليه عمارة عكا وكان قد قدم من مصر ومعه العمال والآلات ، فاستناب غيره على عمارة سور القاهرة ، فبدأ في تنفيذ ذلك وشرع في تجديد سورها وتعلية أبراجها [٦]، وفي ذلك يذكر أبو شامة: " وتقدم بهاء

---

(١) العيني : عقد الجمان جـ ٣ ص ١٥١.

(٢) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء جـ ٤ ص ٢١.

(٣) أبو شامة : الروضتين جـ ٢ ، ص ١٢٠

(٤) المصدر نفسه جـ ٢ ، ص ٢٩٣ ، الذهبي : دول الإسلام ، تحقيق : حسن إسماعيل مروة بيروت ١٩٩٩م جـ ٢ ص ٧٨،٧٩ ، ابن كثير : البداية والنهاية جـ ١٦ ص٥٢٢ ، البنداري: سنا البرق الشامي ص ١١٩ ، ١٢٠.

(٥) العيني : عقد الجمان جـ ٣ ص ١٥١.

(٦) أبو شامة : الروضتين جـ ٤ ، ص ٦ ، ٣٨، ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ص ٢٥٣ ، ، المقريزي : السلوك جـ ١ ص ٢١٣، العيني:عقد الجمان جـ ١ ص ٢٤٤.

بهاء الدين بإتمام العمارات " [1]وقد أطلق الدكتور عبد الرحمن زكي على بهاء الدين قراقوش الأسدي " ناظر أشغال صلاح الدين "[2].

وبعد فتح بيت المقدس سنة (٥٨٣هـ/) كلَّف السلطان صلاح الدين الفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري الأسدي بإصلاح الصخرة المقدسة ببيت المقدس فقام بأمرها وأدار عليها شبابيك من حديد ؛ حيث إن الصليبيين كانوا قد أقاموا عليها كنيسة وستروها بالأبنية ، وقطعوا منها قطعًا وحملوا منها إلى القسطنطينية وإلى جزيرة قبرص [3].

الولاية

في أثناء الحملة الصليبية الثالثة كان بهاء الدين قراقوش والي عكا ، حيث كان السلطان قد أحضره من مصر وسلمه عكا نيابة عن ولده الأفضل [4]، وقد بذل جهداً كبيراً من أجل الدفاع عن عكا ضد الصليبيين على الرغم من قلة الأقوات ، وكان يراسل السلطان بصفة مستمرة ، وقد ذكر أبو شامة : " وفي العشر الأوسط من شعبان كتب بهاء الدين قراقوش وهو والي البلد والمقدم على الأسطول وهو الحاجب لؤلؤ يذكران للسلطان أنه لم يبق بالبلد ميرة إلا قدر يكفي البلد إلى ليلة النصف من شعبان لا غير " ، وكان السلطان صلاح الدين يسارع بإرسال الأقوات

(١) أبو شامة : المصدر السابق جـ ٤ ، ص ٦ ، ٣٨.

(٢) الجيش المصري في العصر الإسلامي ص ٨٢.

(٣) ابن واصل : المصدر السابق جـ٢، ص٢٢٩ .

(٤) ابن أيبك الدواداري : كنز الدرر وجامع الغرر جـ ٧ ص ٩٤.

والمؤن إلى أهل عكا في فترة الحصار الصليبي[١] كما كان من جملة المأسورين بعكا بعد استيلاء الصليبيين عليها فأفدى نفسه بمبلغ كبير من المال [٢].

وبعد أن استولى صلاح الدين سنة (٥٧٩هـ)على حلب ولَّى عليها ابنه الظاهر غازي[٣] ، وولى على قلعتها سيف الدين يازكوج الأسدي ، وكلفه بترتيب مصالح الظاهر غازي [٤]، واستمرا بها حتى أعطاها السلطان صلاح الدين لأخيه الملك العادل ، ولما دخلها الملك العادل ، خرج منها الملك الظاهر غازي ومعه سيف الدين يازكوج ، وسارا إلى خدمة السلطان صلاح الدين بدمشق [٥].

(١) أبو شامة : الروضتين في أخبار الدولتين جـ ٤ ، ص ٩١.

(٢) ابن أيبك الدواداري : كنز الدرر وجامع الغرر جـ ٧ ص ١٠٨.

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ص ١٤٧، العيني : عقد الجمان جـ ٢ ص ١٥، وهو الملك الظاهر غازي ابن السلطان صلاح الدّين ، صاحب حلب، ولد بمصر سنة (٥٦٨هـ/١١٧٣م) وتوفي بقلعة حلب سنة (٦١٣هـ/١٢١٧م).الحنبلي : شذرات الذهب تحقيق : محمود الأرناؤوط دار ابن كثير – دمشق ١٩٨٦م جـ ٧ ص ١٠٢، ١٠٣.

(٤) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٢٦.

(٥) ابن واصل : المصدر السابق جـ ٢ ص ١٥٣، المقريزي : السلوك جـ ١ ص١٩٤.

ولما مات ناصر الدين بن أسد الدين شيركوه صاحب حمص والرحبة وتدمر[١] سنة (٥٨١هـ / ١١٨٥م) ذهب صلاح الدين إلى حمص وقرر أمورها ورتب بها الملك المجاهد أسد الدين بن ناصر الدين شيركوه ، وكتب له منشوراً بإقطاعاته ، كما رتب بحمص مع أسد الدين شيركوه الصغير أميراً من الأسدية يعرف بأرسلان بوغا ، واستمر أرسلان بوغا معه إلى أن كبر وقام بأعباء الحكم في إقطاعاته [٢].

(١) تدمر: مدينة سورية إلى الشرق من حمص. كمال موريس : الموسوعة الجغرافية ص ١٢٧.

(٢) ابن واصل : المصدر السابق جـ٢ ص١٧٧ .

الفصل الثاني

دور المماليك الأسدية في زمن خلفاء صلاح الدين

عند وفاة السلطان صلاح الدين كانت الدولة الأيوبية قد تقاسم حكم أجزائها عدد كبير من بني أيوب ، فاستأثر أبناء صلاح الدين بالأجزاء المختارة ، وتقاسم بقية الأهل والأقارب الأجزاء الأقل أهمية ، وقد احتفظ أكبر أبناء صلاح الدين وهو الملك الأفضل بدمشق مركزًا لدويلة تشتمل على الساحل وبيت المقدس وبعلبك وصرخد[١] وبصرى وبانياس وهونين [٢] وتبنين حتى الداروم قرب حدود مصر ، أما الابن الثاني وهو العزيز عثمان [٣] فاحتفظ بمصر ، والابن الثالث وهو الظاهر غازي فأخذ حلب وشمال الشام ، أما الملك العادل سيف الدين أبو بكر – أخو صلاح الدين – فقد أخذ الكرك والأردن ، فضلًا عن الجزيرة وديار بكر ، وكلها إقطاعات ثانوية منحه إياها صلاح الدين ولا تتناسب مع مكانة العادل وأهميته التي ستزداد وضوحًا مع مضي الوقت ، أما بقية أبناء صلاح الدين وإخوته وآل بيته ، فكانت لهم إقطاعات ثانوية صغيرة [٤].

---

(١) صرخد : بلد ملاصق لبلاد حوران من أعمال دمشق، وهي قلعة حصينة وولاية حسنة واسعة. ياقوت : معجم البلدان جـ ٣ ص ٤٠٠.

(٢) هونين : بلد في جبال عاملة مطلّ على نواحي مصر .ياقوت: المصدر نفسه جـ ٥ ص ٤٢٠.

(٣) هو الملك العزيز عماد الدين أبو الفتح عثمان ابن السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي ، ولي سلطنة مصر في حياة والده صورة ، ثم تسلطن بعد وفاته استقلالًا باتفاق الأمراء وأعيان الدولة بديار مصر ، وكان مولده بالقاهرة في ثامن جمادى الأولي سنة (٥٦٧هـ/١١٧٢م) ومات بالقاهرة سنة (٥٩٥هـ/١١٩٩م) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ١٠٩ – ١١٩.

(٤) سعيد عاشور : الأيوبيين والمماليك ص ٧٣ ، ٧٤ .

ومن الجدير بالذكر أن الملك الأفضل ابن السلطان صلاح الدين لما رأى ما حل بوالده من المرض ، شرع في تحليف الناس وجلس في دار رضوان المعروفة بسكناه وأحضر القضاة وعمل نسخة يمين مختصرة تتضمن الحلف للسلطان طيلة حياته وله بعد وفاته [١] .

وهذا التحليف لم يحضره أحد من الأمراء المصريين على الرغم من أن الملك الأفضل كان عنده في ذلك الوقت الكثير من أمراء الدولة ، بينما كان عند الملك العزيز بمصر غالبية العساكر والأمراء من الأسدية والصلاحية والأكراد ، وهو أقدر وأمكن من الملك الأفضل لعظم الديار المصرية وكثرة ثرواتها [٢] ، بينما كان الأفضل هو المعهود له بالسلطنة[٣] .

ثم لم تلبث أن ظهرت عوامل الانقسام بين أبناء صلاح الدين ، وتهيأت فرص النزاع بين خلفاء صلاح الدين، وتتابعت مقدماتها فكان من الواضح أن يصيب الملك العادل من ذلك الإرث العظيم فقد كان داهية وليس في البيت الأيوبي من يدانيه في حسن السياسة وكثرة التجربة وبعد النظر[٤].

وقد وصف الدكتور السيد الباز العريني تاريخ الأيوبيين بعد وفاة صلاح الدين بأنها لم تكن سوى قصة طفحت بما وقع من المؤامرات والحروب بين أبناء الأسرة

(١) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ص ٤١٨.

(٢) المصدر نفسه جـ ٣ ص ٥ ، المقريزي : السلوك جـ١ ص ٢٢٨.

(٣) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر جـ ٣ ص ١١٠.

(٤) علي الصلابي : الأيوبيون بعد صلاح الدين والحملات الصليبية من الرابعة إلى السابعة ، دار ابن الجوزي – القاهرة ٢٠٠٨م ص ١٦ ، ١٧.

الواحدة [١] ، وكان للمماليك الأسدية دور كبير في سير تلك الأحداث والمؤامرات والحروب.

موقف المماليك الأسدية من النزاع بين الأفضل والعزيز

كان بداية الخلاف بين الأفضل والعزيز عندما عزم الأفضل عن التنازل عن القدس لأخيه العزيز ثم تراجع عن هذا القرار بإيعاز من ضياء الدين بن الأثير[٢] الذي كان الملك الأفضل قد عينه وزيرًا له ، كما أن الأفضل كان قد أبعد كبار أمراء أبيه وأصحابه وأعرض عنهم حتى فارقوه ، وذلك بإيعاز من ضياء الدين بن الأثير – أيضًا– الذي حسن له طردهم ، وذهب بعضهم إلى أخيه الظاهر ، والبعض الآخر إلى أخيه العزيز ، أما الذين ذهبوا إلى أخيه الملك العزيز فقد شكوا له استبداد ضياء الدين ابن الأثير ، وحسنوا له الاستبداد بالملك وضم أملاك أخيه والقيام بالسلطنة مقام أبيه [٣].

وهنا يتجلى دور الأمراء بمصر وكان من بينهم أمراء الأسدية بعد أن استحكمت الوحشة بين الأخوين واستمرت إلى آخر سنة (٥٨٩هـ/١١٩٣م) اتفق رأيهم على أن تكون المملكة مجتمعة للملك العزيز عثمان ، وأشاروا إليه بالتوجه إلى الشام لتجتمع له المملكتان ، فبلغ ذلك الملك الأفضل فخاف من أخيه الملك

---

(١) الشرق الأدنى في العصور الوسطى(الأيوبيون)النهضة العربية –بيروت ١٩٦٧م ص ١١٥.

(٢) ضياء الدّين بن الأثير الصّاحب العلّامة أبو الفتح، نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشّيباني الجزري ، الكاتب ولد بجزيرة ابن عمر سنة (٥٥٨هـ/ ١١٦٢م) ، وهو صاحب كتاب: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، توفى سنة (٦٣٧هـ / ١٢٣٩م) . الذهبي : تاريخ الإسلام جـ٤٦ ص٣٥٣ ، ٣٥٤ .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٣ ص ١٤ ، ١٥،أبو الفدا : المختصر جـ ٣ ص ١١٠ ابن أيبك الدواداري : كنز الدرر وجامع الغرر جـ ٧ ص ١٢٤.

العزيز نظرًا لكثرة جيشه وقوته – كما سبق ذكره – ثم خرج الملك الأفضل بعساكره ونزل برأس الماء وطلب المؤازرة من أخيه الملك الظاهر وعمه الملك العادل ، كذلك أرسل إلى الملك المنصور صاحب حماه[١] والملك المجاهد صاحب حمص[٢] والأمجد صاحب بعلبك[٣] ، فوردت رسلهم كلهم إليه بأنهم عازمون على مؤازرته ، وكان ذلك في أوائل جمادى الآخرة (٥٨٩هـ/١١٩٣م) [٤].

وقد اشترك المماليك الأسدية في الجيش الكبير الذي خرج من مصر إلى الشام بصحبة الملك العزيز في سنة (٥٩٠هـ/١١٩٤م) مضافًا إليهم الصلاحية والأكراد وغيرهم ، بعد أن استخلف أخاه المؤيد نجم الدين مسعود [٥].

كما كان لبعض الأسدية دور آخر في حفظ مصر وحراستها بعد خروج الملك العزيز بالجيش ، فقد ترك بالقاهرة بهاء الدين قراقوش الأسدي وسيف الدين يازكوج الأسدي وخطلج في تسعمائة فارس ، ولما وصلت العساكر المصرية إلى الملك

(١) الملك المنصور محمد بن المظفّر تقي الدّين عمر بن شاهنشاه بن أيوب ، صاحب حماة ، توفي في سنة (٦١٧هـ/١٢٢٠م) ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب جـ ٧ ص ١٣٨.

(٢) الملك المجاهد أسد الدّين شيركوه بن محمد بن شيركوه بن شادي ، صاحب حمص. توفي بها سنة (٥٦٩هـ/١١٧٤م) ، وتوفي سنة (٦٣٧هـ/١٢٤٠م) بحمص. ابن العماد الحنبلي : المصدر السابق جـ ٧ ص ٣٢٢.

(٣) الملك الأمجد مجد الدّين أبو المظفّر بهرام شاه بن فرّوخ شاه بن شاهنشاه بن أيوب بن شادي ، صاحب بعلبك ، تملّكها بعد والده خمسين سنة، قتله مملوك له بدمشق في شوال سنة (٦٢٨هـ/١٢٣١م). ابن العماد الحنبلي : المصدر السابق جـ ٧ ص ٢٢٢، ٢٢٣.

(٤) ابن الأثير : الكامل في التاريخ جـ ١٠ ص ٢٣٤ ، أبو شامة : الروضتين في أخبار الدولتين جـ ٤ ص ٢٤٩ ، ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٣ ص ٢٦-٢٩.

(٥) الملك المؤيد نجم الدين مسعود ابن السلطان صلاح الدين، توفي في سنة (٦٠٦هـ/١٢١٠م) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر جـ ٣ ص ١٣٩.

الأفضل ولَّى منهزماً من رأس الماء إلى دمشق ثم وصل الملك العزيز بجيشه ونازل دمشق ، وفي ذلك الوقت وصل الملك العادل إلى دمشق وتبعه بقية الملوك الظاهر والمجاهد والمنصور والأمجد ، وأرسل الملك العادل إلى الملك العزيز يشفع له في الملك الأفضل ويسأله الاجتماع به فتم الاجتماع بصحراء المزة ، وانتهى الأمر بتقرير قواعد الصلح على شروط تم الاتفاق عليها واجتمع الفقهاء وعملوا نسخة اليمين(١)

ورجع الملك العزيز بالعساكر المصرية إلى مصر، ولكنه لم يلبث أن عاد وعزم على الخروج إلى الشام بعساكره المكونة من الأسدية والصلاحية والأكراد وغيرهم في سنة (٥٩١هـ/١١٩٥م) ؛ لرغبته في أن تكون الخطبة والسكة باسمه في دمشق ؛ لأنه صاحب الديار المصرية وعنده معظم العساكر، ولما سمع بذلك الملك الأفضل انزعج واضطرب وسافر إلى ملوك الدولة الأيوبية للاستنجاد بهم (٢).

وعندما وصل الملك العزيز إلى الفوَّار – من أرض السواد– وخيم به ، أخذ الملك العادل يدبر خطة لتفريق عساكره والإيقاع بينه وبينهم ، فكاتب الملك العادل الأمراء الذين مع الملك العزيز ووعدهم الوعود الجميلة وأخذ في إفسادهم عليه وتنفير قلوبهم منه وحثهم على تركه والانضمام إلى الملك الأفضل (٣).

(١) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٣ ص ٢٩–٣٥ ، المقريزي : السلوك جـ١ ص ٢٣١ ، ٢٣٢.

(٢) ابن واصل : المصدر السابق جـ ٣ ص ٢٩–٣٥ ، المقريزي : المصدر السابق جـ ١ ص ٢٣٧.

(٣) ابن الأثير : الكامل في التاريخ جـ ١٠ ص ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، أبو شامة : الروضتين في أخبار الدولتين جـ ٤ ص ٢٤٩ ، ابن واصل : المصدر السابق جـ٣ ص ٤٦.

وقد تسبب المماليك الأسدية في انسحاب الملك العزيز ورجوعه إلى الديار المصرية بسبب الحيلة التي قام بها الملك العادل ضد الملك العزيز ، وذلك لطمعه في ملك دمشق كما سيأتي ذكره .

ومن الجدير بالذكر أنه كان هناك تنافساً شديداً بين الأسدية والصلاحية في الوقت الذي كان فيه الملك العزيز يميل إلى الصلاحية ويؤثرهم ويقدِّمهم ؛ الأمر الذي أثار حسد المماليك الأسدية وحقدهم ، كما كان الأسدية يعانون من تقدم الناصرية عليهم ، وقد استغل الملك العادل ذلك التنافس وأخذ يعمل الحيلة للإيقاع بين الفرقتين ، وكذلك الإيقاع بين الأسدية والملك العزيز ، فكاتب الملك العزيز سراً يخوفه من الأسدية ويوغر صدره عليهم ويغريه بإبعادهم ، ويعرفه ما انطوت عليه قلوبهم من الغل ، كذلك كاتب الأسدية ينفرهم من الملك العزيز ويخوفهم منه ووعدهم بالأموال والإقطاعات وكان يهدف من ذلك أن ينفروا من الملك العزيز ويستميلهم إليه ، على الرغم من أن الأسدية والأكراد كانوا يكرهون الملك العادل ولكن المصلحة دفعتهم إلى ذلك [1] .

وقد نتج عن ذلك أن استوحش الملك العزيز من الأسدية واستوحشوا منه فكانوا إذا لقوه عرفوا في وجهه التنكر وعرف في وجوههم التنكر كذلك ، وتمادى الأمر إلى أن تمكن الخوف منه في قلوبهم والخوف منهم في قلبه ، حتى عزموا على مفارقته ، ولم يتوقف أمر الأسدية عند ذلك الحد ، بل أنهم حسنوا ذلك للأكراد المهرانية فوافقوهم على ذلك ، وكان مقدم الأكراد حسام الدين أبا الهيجاء السمين ، الذي كان الملك العزيز يوليه ثقةً بالغة ، وما كان يظن الملك العزيز أنه يحنث في

(١) أبو شامة : الروضتين في أخبار الدولتين جـ ٤ ص ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٣ ص ٤٦، ٤٧ ، المقريزي : السلوك جـ١ ص ٢٣٨، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ١١٢.

يمينه ، وأنه تصدر منه مؤامرة عليه ، ولكن الأمراء الأسدية استطاعوا أن يخوفوه من الملك العزيز ، واستمروا في إقناعه حتى استطاعوا أن يضموه إليهم ، فاستجاب لهم ووافق على مفارقة الملك العزيز والانضمام إلى الملك العادل والملك الأفضل ، فلما كان عشية اليوم الرابع من شوال من سنة (٥٩١هـ/١١٩٥م) رحل المماليك الأسدية والأمير حسام الدين أبو الهيجاء السمين والأكراد المهرانية مرة واحدة بعد دخول الليل وهم لابسون عدة الحرب ، وكان على الأسدية سيف الدين جرديك ، ومعه سيف الدين يازكوج ، وكانوا غالبية عسكر الملك العزيز ، وكان الأمير هكندري – وهو أكبر الأمراء الحميدية – محالفاً لهم ومعاقداً ، فجاء إلى الملك العزيز وأخبره بما اجتمع عليه القوم ، ولكن الملك العزيز لم يتزعزع لهذا الخبر ولا أظهر ارتياعاً بل ثبت مكانه واستقر ، فقالت له الأمراء الصلاحية : " دعنا نتبعهم ونقاتلهم ونتركهم عبرة للمعتبر"، فقال لهم الملك العزيز : " لا ترهبوهم واتركوهم يذهبوا أين شاءوا لعلنا نصفوا من كدرهم ، وهذا ليل ، ولا يؤمن فيه الاختلاط ولا يعرف الإنسان فيه صديقه من عدوه ، والأولى الأخذ بالحزم والاحتياط " وكان المفارقون للملك العزيز معظم العسكر ، بينما ثبت الملك العزيز في معسكره بالفوار ومعه خواص أصحابه على الخطر وبات ثابت الجأش والجنان ، ولم يظهر أسفاً على فراق العساكر [١].

ثم وصل الأسدية والأكراد المهرانية إلى الملك العادل ولحقوا به ؛ فسر بهم لأنهم معظم الجيش ، وكان الأسدية والأكراد الذين خرجوا عن الملك العزيز قد طلبوا من الملك العادل سرعة الرحيل إلى الديار المصرية ، حيث إن الملك العزيز قد فارقه أكثر العسكر وهو في جمع قليل ، لذا يجب اللحاق به قبل أن يصل إلى الديار المصرية لانتزاع البلاد منه، فاتفق الملك العادل مع الملك الأفضل وتوثق كل منهما

(١) المقريزي : السلوك جـ١ ص ٢٣٨، العيني :عقد الجمان (العصر الأيوبي) جـ ٣ ص١٠.

بالآخر بالأيمان المؤكدة ، واجتمع الملكان بالأسدية وبقية العسكر الخارجين على الملك العزيز واتفقت كلمتهم ، وكان العادل والأفضل قد عقدا اتفاقًا يقضي بأن يكون ثلث مصر للعادل وثلثاها للأفضل ، ثم رحلوا طالبين الديار المصرية ، وكان الأسدية قد حرصوا على الجد في السير ليسبقوا الملك العزيز إلى مصر فلم يقدروا واجتهدوا في أن يدركوه فلم يلحقوا به ، فأمرهم الملك العادل بالثبات [١] ، فلما وصلوا إلى تل العجول ، قام الملك الأفضل بمنح الخلع والهدايا والكوسات[٢] لجميع الأسدية والأكراد ، وسار الملك الأفضل إلى القدس، وتسلمه من الأمير جرديك ، وأعطاه بيسان وكوكب والجولان[٣] والمنيحة [٤] ، ثم تسلم أبو الهيجاء السمين القدس وأعماله وما يجاوره من أعمال الساحل بأمر الأفضل والعادل ، فرتب فيها نوابه وأصحابه ثم صحبهم إلى الديار المصرية لمحالفة الأسدية [٥].

أما بقية الأسدية في مصر فقد ظلوا على ولائهم وإخلاصهم للملك العزيز عثمان ، حيث كان نائبه في القاهرة الأمير بهاء الدين قراقوش الأسدي ، فبقي مخلصاً للملك العزيز عثمان وتبعه على ذلك من بقي من الأسدية في مصر، على الرغم من خوف الملك العزيز أن يوافقوا أصحابهم الغادرين ويسلكوا سيرتهم في

(١) أبو شامة : الروضتين في أخبار الدولتين جـ ٤ ص ٢٥٠ ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٣ ص ٥١ ، المقريزي : السلوك جـ ١ ص٢٣٨.

(٢) الكوسات : صنوج من نحاس تشبه الترس الصغير يدق بإحداهما على الأخرى بإيقاع ، وهي من الآلات الموسيقية . الخطيب : معجم المصطلحات والألقاب التاريخية ص ٣٧٣.

(٣) الجولان : قرية وقيل جبل من نواحي دمشق ثم من عمل حوران . ياقوت: معجم البلدان جـ ٢ ص ١٨٨ ، ١٨٩.

(٤) المقريزي : المصدر السابق جـ١ ص ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، والمنيحة : قرية من قرى دمشق بالغوطة . ياقوت : المصدر السابق جـ ٥ ص ٢١٧.

(٥) أبو شامة : المصدر السابق جـ ٤ ص ٢٥٠ .

الغدر به ، فيمنعوه من دخول البلد [١] ، وقد كان خوفه في موضعه ؛ حيث إن الأسدية والأكراد الذين تخلوا عنه كانوا قد عقدوا النية على مكاتبة نوابهم وأصحابهم بالقاهرة ليستقبلوه ويحولوا بينه وبين القاهرة ، ويكونوا هم والملك العادل والملك الأفضل خلفه ، فصير بذلك بين الفريقين ، ويؤخذ أخذاً باليد وتنتزع منه البلاد [٢].

وعلى الرغم من ذلك فقد رحل الملك العزيز بمن معه من العساكر إلى الديار المصرية وسار إليها على تيقظ وحذر مقدمًا عساكر الاستطلاع ، وسلك طريق اللجون والرملة ، ووصل إلى البلاد وأمَّن كل من وجده من مخالفي الخارجين عليه وطيب قلوبهم وأكرمهم وأحسن إليهم واستقر في كرسي ملكه [٣] .

ثم وصل الملك العادل والأفضل بعساكرهما ومن انضم إليهما من الأسدية والأكراد إلى الديار المصرية ونزلوا بلبيس وبها جموع الصلاحية ، وكان نزولهم عليها وقت فيضان النيل فاحتمت البلاد بما غمرها من الماء الأمر الذي أدى إلى غلاء الأسعار وتعذر الأقوات وكان الصلاحية بها مستظهرون بينما اشتدت مئونة الأسدية والأكراد ، وندموا على ما فعلوا ، الأمر الذي اضطر الملك العادل إلى طلب الصلح ، خوفاً من أن يؤدي هذا الغلاء بالأسدية والأكراد إلى التراجع إلى مستقرهم والتخلي عنه ، فأرسل إلى القاضي الفاضل[٤] لكي يتفاوض معه على الصلح [٥].

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٣ ص ٤٨ ، أبو الفدا : المختصر جـ ٣ ص٩١.

(٢) المقريزي : السلوك جـ ١ ص ٢٣٨.

(٣) ابن واصل : المصدر السابق جـ ٣ ص٤٨، ٤٩ ، أبو الفدا : المختصر جـ ٣ ص٩١.

(٤) عبد الرحيم بن علي بن الحسن القاضي الفاضل ، ولد سنة(٥٢٩هـ/١١٣٥م) ومات سنة (٥٩٦هـ/١٢٠٠م) الذهبي : تاريخ الإسلام جـ ٤٢ ص ٢٤٤-٢٥١

(٥) أبو شامة : الروضتين في أخبار الدولتين جـ ٤ ص ٢٥٠ ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٣ ص ٥٢ ، ابن أيبك الدواداري : كنز الدرر وجامع الغرر جـ ٧ ص ١٢٩.

وهناك رواية يرويها ابن الأثير تدل على خوف الملك العادل من تأييد المماليك الأسدية للملك الأفضل ومحبتهم له ، وكذلك الأكراد، وهؤلاء كانوا قوة يعتد بها في ذلك الوقت ، ومن الممكن أن تحسم الأمر لصالح الملك الأفضل ؛ فيستولي على ملك مصر ، فيذكر في هذا الصدد: " فرأى العادل انضمام العساكر إلى الأفضل واجتماعهم عليه فخاف أنه يأخذ مصر ولا يسلم إليه دمشق فأرسل حينئذ سرا إلى العزيز يأمره بالثبات ، وأن يجعل بمدينة بلبيس من يحفظها ، وتكفل بأنه يمنع الأفضل وغيره من مقاتلة من بها فجعل العزيز الناصرية ومقدمهم فخر الدين جركس بها ومعهم غيرهم ، ووصل العادل والأفضل إلى بلبيس فنازلوا من بها من النصرية ، وأراد الأفضل مناجزتهم أو تركهم بها والرحيل إلى مصر فمنعه العادل من الأمرين ، وقال هذه عساكر الإسلام فإذا اقتتلوا في الحرب فمن يرد العدو الكافر وما بها حاجة إلى هذا فإن البلاد لك وبحكمك ، ومتى قصدت مصر والقاهرة وأخذتهما قهرا زالت هيبة البلاد وطمع فيها الأعداء وليس فيها من يمنعك عنها وسلك معه مثال هذا فطالت الأيام ، وأرسل إلى العزيز سرا يأمره بإرسال القاضي الفاضل ، وكان مطاعا عند البيت الصلاحي ؛ لعلو منزلته عند صلاح الدين ، فحضر عندهما وأجرى ذكر الصلح ، وزاد القول ونقص ، وانفسخت العزائم واستقر الأمر على أن يكون للأفضل القدس وجميع البلاد بفلسطين وطبرية والأردن وجميع ما بيده ، ويكون للعادل أقطاعه الذي كان قديما ويكون مقيما بمصر عند العزيز ، وإنما اختار ذلك لأن الأسدية والأكراد لا يريدون العزيز فهم يجتمعون معه فلا يقدر العزيز على منعه "[1].

ويذكر ابن واصل رواية تكاد تكون شبيهة برواية ابن الأثير فهو يرى أن الملك العادل لما قدم إلى دمشق نجدة للملك الأفضل طمع في دمشق ، ولما جاء

(١) الكامل في التاريخ جـ ١٠ ص ٢٤٠ ، ٢٤١.

الملك العزيز البلاد بعساكره ، كانت خطة الملك العادل هي إيقاع الخلاف بين الصلاحية والأسدية ، وبين الأسدية والملك العزيز ، الأمر الذي أدى إلى رجوع الملك العزيز ، ولولا أن الملك العادل هو الذي قام بتهدئة العسكر لضاع مُلْك الملك العزيز ، وفي هذا أثبت الملك العادل أنه صاحب الفضل والمنة على الملك العزيز ، واتفق معه سرًا على أخذ دمشق ، على أن يكون الملك العادل نائبه بها ، وتكون الخطبة والسكة في الممالك الأيوبية كلها للملك العزيز، فأجابه الملك العزيز وتم الاتفاق على ذلك [١] .

وكان الملك العزيز في ضيق ذات اليد ؛ ويحتاج إلى تقوية من بقي معه من الرجال ، رغم رفضه التبرعات التي تقدم بها الأغنياء والأماثل من أهل مصر ، وفي ذلك الوقت ورد عليه رسول عمه العادل يطلب منه الاجتماع بالقاضي الفاضل فركب من القاهرة وخرج إليه ، ولما علم بذلك الملك العادل ركب وتلقاه أحسن لقاء واجتمع به ، واتفق معه على ما فيه المصلحة الشاملة للجميع [٢].

أما بالنسبة للمماليك الأسدية الذين خرجوا عن طاعة الملك العزيز ، فكما أخرجهم الملك العادل عن طاعته ، فقد عمل على إعادتهم إليه مرة أخرى ، وأشار بأنه ينبغي للملك العزيز أن يعفو عن الأمراء الأسدية ، وأن يصفح عن جرمهم ليرجعوا إلى خدمته ويرد إليهم إقطاعاتهم ، وبالفعل عفا عنهم الملك العزيز وعادوا إلى خدمته وطيب قلوبهم ورد إليهم إقطاعاتهم ، وكذلك الأكراد ، وحلف الملك العادل لابن أخيه الملك العزيز ، واختار المقام عنده بمصر لتقرير قواعد ملكه ، وأشار بان يحلف كل من الأخوين لصاحبه، وأن يرجع الملك الأفضل إلى دمشق ، ولما تم الصلح رجع الملك الأفضل إلى دمشق بعساكره ، ورجع الملك العزيز إلى

(١) مفرج الكروب جـ ٣ ص ٥٦ ، ٥٧.

(٢) المصدر نفسه جـ ٣ ص ٥٣ ، المقريزي : السلوك جـ ١ ص٢٣٩.

القاهرة وصحبته عمه العادل ومعه المماليك الأسدية ، فنزل العادل بالقصر ، وأمر ونهى وحكم وتصرف في كبير الأمور وصغيرها [١].

وفي سنة (٥٩٢هـ/١١٩٦م) لزم الملك الأفضل الزهد والقناعة ، وأقبل على العبادة وفوض كل الأمور إلى وزيره ضياء الدين بن الأثير ، وقد اختلت به الأحوال وكثرت الشكوى منه [٢] .

وفي ذلك يذكر ابن واصل : " أنه لما كثرت الأخبار بمصر بما يعتمده ضياء الدين بن الأثير– وزير الملك الأفضل – تحركت عزيمة الملك العادل للسفر بعساكر العزيز، ووعد بإزالة ضياء الدين بن الأثير وطرده عن البلاد وإصلاح ما فسد من الأحوال " [٣] ، وهذه الرواية ذكرها ابن واصل نقلاً عن العماد الكاتب، وقد نقدها ابن واصل ، وأضاف بأن العماد ذكر ذلك تقية في ذلك الوقت وخوفاً من الملك العادل[٤] ،حيث يرى أن الأمر كان متفقًا عليه بين العادل والعزيز ، كما سبق ذكره ، وكان اضطراب الأمور على الملك الأفضل فرصه سانحة للعادل والعزيز ، ومبررًا لأخذ دمشق ، شريطة أن يسلمها العزيز إلى العادل ، لتكون الخطبة والسكة للعزيز بسائر البلاد الأيوبية ، كما كانت لأبيه، فأجابه الملك العزيز إلى ذلك فخرجا وسارا من مصر، ومعهما الأسدية والصلاحية والأكراد ، فأرسل الأفضل إليهما فلك الدين، وهو أحد أمرائه، وهو أخو الملك لعادل لأمّه، فاجتمع بالملك العادل فأكرمه وأظهر الإجابة إلى ما طلبه، ثم واصل الملك العادل والملك العزيز السير حتى نزلا على

(١) أبو شامة : الروضتين في جـ ٤ ص ٢٥٠ ابن واصل : المصدر السابق جـ ٣ ص ٥٤ ، العيني : عقد الجمان جـ ٣ ص ٢٩ ، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة جـ ٦ ص١١٣.

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٣ ص ٥٥ ، المقريزي : السلوك جـ١ ص ٢٤٣.

(٣) ابن واصل : المصدر السابق جـ ٣ ص ٥٦.

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٣ ص ٥٦.

دمشق ودخلوها بالاتفاق مع أمراء الأفضل ، فزحف الملك العادل والملك العزيز ضحى يوم الأربعاء السادس والعشرين من رجب من سنة(٥٩٢هـ/١١٩٦م) ، فدخل الملك العزيز من باب الفرج، والملك العادل من باب توما ، فأجاب الملك الأفضل إلى تسليم القلعة ، وانتقل منها بأهله وأصحابه ، وأعطى الملك الأفضل صرخد ، فسار إليها بأهله واستوطنها [١] وأخرج معه وزيره ضياء الدين بن الأثير مختفياً في صندوق من بعض صناديقه، خوفاً عليه من القتل، وكان قد ترقبه أقوام ليقتلوه فلم يظفروا به [٢].

ولما تسلم الملك العزيز دمشق سلمها إلى عمه الملك العادل حسب الاتفاق المبرم بينهما ، ورحل الملك العزيز من دمشق إلى الديار المصرية عشية يوم الاثنين تاسع شعبان سنة (٥٩٢هـ/١١٩٦م) ، وأبقى الملك العادل السكة والخطبة بدمشق للملك العزيز [٣].

ويذكر ابن نظيف الحموي رأيًا مختلفًا في تولية العادل دمشق حيث ذكر : "ولما تملكها سأل الملك العادل أيازكوج[٤] أن يطلبها له من الملك العزيز فطلبها له فأعطاه إيَّاها لولده الملك المعظم عيسى وكان مع يازكوج في الحجبة بها جهاركس وسنقر الكبير وعز الدين أسامَة وسراسنقر"[٥].

(١) أبو شامة : الروضتين جـ ٤ ص ٢٥١، ٢٥٣.

(٢) ابن واصل : المصدر السابق جـ ٣ ص ٦٤، العيني : عقد الجمان جـ ٣ ص ٣٩.

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٣ ص ٦٨ ، ٦٩ .

(٤) يقصد بإيازكوج سيف الدين يازكوج الأسدي .

(٥) التاريخ المنصوري أو تلخيص الكشف والبيان في حوادث الزمان ، تحقيق /أبو العيد دودو مطبعة الحجاز– دمشق ١٩٨١م ص ٤ ، ٥ .

ولكن هذا الرأي مخالف لسير الأحداث الذي ظهر فيما بعد ، والذي يؤكد أن أمر الاستيلاء على دمشق وإعطائها للعادل هو أمر تم ترتيبه مسبقًا بين الملك العادل والملك العزيز .

ونخلص من ذلك أن المماليك الأسدية شاركوا في أحداث النزاع بين الأفضل والعزيز وتقلبت أحوالهم في الانحياز لهذا أو ذاك ، ولكن المؤكد أنهم كانوا ينحازون دائمًا إلى الجانب الذي يضمن لهم حفظ مراكزهم ونفوذهم ومكتسباتهم .

موقف الأسدية من تولي المنصور محمد ابن الملك العزيز مصر

لم يستمر الملك العزيز عثمان طويلاً في الحكم ، بل وافته المنية في العشرين من المحرم من سنة (٥٩٥هـ/١١٩٩م) وعندما توفى خلفه ابنه الملك المنصور محمد ، وكان عمره تسع سنين وبضعة شهور ، وكان للمماليك الأسدية دور كبير في تولية المنصور محمد ابن الملك العزيز عثمان في الوقت الذي كان فيه الأمير فخر الدين جهاركس الصلاحي [١] هو الحاكم الفعلي في الدولة في عهد الملك العزيز ، فأرسل بدوره إلى الملك العادل يستدعيه إلى مصر وكان حينذاك محاصراً لماردين[٢]، وكان الخبر قد وصل إلى الملك الأفضل إلا أنه لم يهتم بالأمر، وكان المماليك الأسدية والأكراد محبين للملك الأفضل مؤثرين له ، أما الفرقة الصلاحية فكانت على العكس من ذلك ؛ بسبب ما قدموه من الإساءة إليه ، ووقوفهم بجانب الملك العزيز ضده [٣].

(١) الأمير الكبير فخر الدّين جهاركس الصلاحي أعطاه العادل بانياس والشّقيف، فأقام هناك مدّة، وكان أحد أمراء صلاح الدّين. شهد الغزوات كلّها، وتوفي في رجب بدمشق سنة (٦٠٨هـ /١٢١٢م) ودفن بقاسيون. ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب جـ ٧ ص ٦٠.

(٢) ماردين: قلعة مشهورة على قنّة جبل الجزيرة مشرفة على دنيسر ودارا ونصيبين. ياقوت: معجم البلدان جـ ٥ ص ٣٩.

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٣ ص ٨٧ ، ٨٨.

وفي ذلك يذكر أبو شامة نقلاً عن العماد :" وكانت الأسدية في الأيام العزيزية بالناصرية مغمورين ، وبالاستيلاء عليهم مقهورين ، وكبيرهم سيف الدين يازكوج، وكان عند وفاة العزيز غائبًا بأسوان ، فلما بلغه حضر ، وجمع الأسدية واجتمعوا هم والصلاحية ظاهر القاهرة ، فقال لهم نعم ما رأيتم من حفظ العزيز في ولده ، لكنه صغير السن ، لا يحتمل ثقل هذا الفن ، ولابد من كبير من أهل البيت يربيه ، ويدير الدواوين ويرتب القوانين ، وما ها هنا إلا الملك العادل ، وهو الآن في بلاد الشرق مشغول ، وها هنا من هو أقرب منه ، وهو الملك الأفضل ، فقالت الأسدية: هذا هو الرأي الراجح ، ولم يسع الصلاحية مخالفته ، فاتفقوا على استدعاء الأفضل من صرخد فخرج منها ليلة الأربعاء التاسع والعشرين من صفر ، وسلك البرية ، فوصل إلى القدس يوم الخميس ، وخرج إليه عسكره ، وساروا معه إلى بيت جبريل ، ثم أغذ السير ، فلما قرب منهم في تاسع ربيع الأول تلقوه وإلى أعلى مراقي العلاء رقوه ، وسروا بقدومه وجروا لمرسومه "[1] .

وهناك رواية يرويها ابن الأثير ، ونقلها عنه ابن واصل تذكر اجتماع سيف الدين يازكوج الأسدي مقدم الأسدية وفخر الدين جهاركس مقدم الصلاحية ليتفقا على من يتولي الملك ، حيث ذكر : "فقال فخر الدين : " نولي ابن الملك العزيز ، فقال سيف الدين يازكوج : إنه طفل ، وهذه البلاد ثغر الإسلام ، ولابد لها من قَيِّم بالملك يجمع العساكر ويقاتل بها ، والرأي أننَّا نجعل المُلْك في هذا الطفل ونجعل

(١) الروضتين في أخبار الدولتين جـ ٤ ص ٢٦١ ، ، العيني : عقد الجمان جـ ٣ ص ٧٥ ، وراجع أيضًا : ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ١٣٢.

معه بعض أولاد صلاح الدين يدبره إلى أن يكبر، فإن العساكر لا تطيع غيرهم ولا تنقاد إلا لأمير" [١] .

وكان الملك العزيز قد أوصى بالملك لولده ، وأن يكون مدبره بهاء الدين قراقوش الأسدي ، فاتفق فخر الدين جهاركس الصلاحي وسيف الدين يازكوج الأسدي على هذا الرأي ، فقال فخر الدين : فمن نولي ؟ فأشار سيف الدين يازكوج بشخص غير الملك الأفضل لئلا يُتَّهم وينفر جهاركس عنه ، فامتنع فخر الدين جهاركس من ولايته ، فلم يزل يذكر من أولاد السلطان واحداً بعد واحد إلى أن ذكر الملك الأفضل ، وكان بصرخد مقيمًا فيها منذ أُخذت منه دمشق ، فقال فخر الدين : هو بعيد عنا ، فقال سيف الدين يازكوج : نطلبه من صرخد ، فيصل إلينا بسرعة ، فشرع فخر الدين يغالطه ، فقال سيف الدين يازكوج : نشاور القاضي الفاضل في ذلك ، ثم اجتمعا بالقاضي الفاضل وعرَّفاه صورة الحال، فأشار عليهم بالملك الأفضل " [٢].

ويذكر ابن واصل رواية أخرى : " أنه لما مات الملك العزيز اتفقت كلمة الأمراء على تنفيذ ما وصى به الملك العزيز ، وهو إقامة ابن الملك العزيز في الملك ، وقيام بهاء الدين قراقوش الأسدي بأتابكيته، فأجلسوا الملك المنصور في مرتبة أبيه ، وترتب بين يديه قراقوش ، وحلفت الأمراء كلهم للملك المنصور وامتنع عماه الملك المؤيد والملك المعز من الحلف إلا بشرط أن تكون الأتابكية لهما ، وجرت بينهما منازعة ومشاقة كثيرة ، وأجابا بعد ذلك إلى الحلف وحلفا، ثم وقع الاختلاف بين أمراء الدولة فقال قوم منهم :لابد لهذا الملك من رجل فحل مهيب

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ جـ ١٠ ص ٢٥٥، ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٣ ص ٨٨.

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٣ ص ٨٨ ، ٨٩.

يدبره ، وقراقوش مضطرب الآراء ضيق العطن لا يصلح لهذا الأمر، وقال قوم : نرضى بهذا الخادم ، فإنه أطوع وأسلس مقادة ، ولا نحضر من يستطيل بسطوته ، وقال آخرون : لا تحفظ هذه البلاد إلا بملك مرهوب مخوف ، وإن فيها بقايا من جند المصريين الذين انتزعت البلاد من أيديهم قهراً ، ويقصدها أعداء الدين من جهة البحر ، فمتى لم يقم بأمرها ملكٌ قاهر لا تحفظ ، وطال النزاع بينهم فرجعوا إلى رأي القاضي الفاضل، وانتهى الأمر باختيار الملك الأفضل"[١].

ولما وقع الاختيار على الملك الأفضل أرسل سيف الدين يازكوج الأسدي في الحال إلى الملك الأفضل يستدعيه من صرخد ، فسار الملك الأفضل من صرخد في الثامن والعشرين من صفر من سنة (٥٩٥هـ/١١٩٩م) ووصل إلى الديار المصرية في الخامس من ربيع الأول [٢].

ونخلص من ذلك أن المماليك الأسدية استطاعوا أن يفرضوا رغبتهم على الصلاحية ، وعلى الرغم من موافقة الصلاحية للأسدية على تولي الأفضل إلا أنهم وافقوا مضطرين في الظاهر فقط ، لأنهم كانوا يعلمون ميل الملك الأفضل إلى الأسدية والأكراد ، ويخشون من ازدياد نفوذهم في ظل حكم الملك الأفضل ، ويؤكد ذلك ما ذكره العيني: " فلم يمكن الصلاحية مخالفة الأسدية وقالوا: افعلوا ففعلوا. فكتب أزكش إلى الأفضل يستدعيه وهو بصرخد" [٣] كما ذكر هذه الرواية – أيضًا– ابن تغري بردي[٤] .

---

(١) المصدر نفسه جـ ٣ ص ٨٩ ، ٩٠.

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٣ ص ٩١ –٩٣، المقريزي : السلوك جـ١ ص ٢٥٨ ،٢٥٩ العيني : عقد الجمان (العصر الأيوبي)جـ ٣ ص ٧٥، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ١٣٢.

(٣) العيني : المصدر السابق جـ ٣ ص ٧٥ .

(٤) ابن تغري بردي : المصدر السابق جـ ٦ ص ١٣٢.

لذا نجد أن الصلاحية حاولوا منع الملك الأفضل من الوصول إلى مصر حيث كتبوا إلى من بدمشق من أصحابهم يقولون: قد اتفقت الأسدية على الأفضل وإن ملك الأفضل الديار المصرية حكموا علينا، فامنعوا الأفضل من المجيء، فركب عسكر دمشق ليمنعوه ولكنهم لم يتمكنوا من ذلك ، ووصل الملك الأفضل إلى الديار المصرية [١] .

وكان الأسدية هم أول من استقبل الملك الأفضل لدى وصوله مصر ، ويبدو أنه كان يعلم بشعور الصلاحية نحوه ؛ لذلك لم ينزل عند فخر الدين جهاركس أولاً وقد كان الحاكم الفعلي في البلاد، ونزل في خيمة أخيه الملك المؤيد وأكل ، ثم انتقل منها إلى خيمة جهاركس ، فما طاب ذلك لجهاركس ، وخشي من الأفضل ومن أن يكون هناك اتفاق عليه مع المماليك الأسدية مثل يازكوج وجماعته من الأمراء الأسدية ، فاتفق جهاركس وزين الدين قراجا على مفارقة الديار المصرية فسارا منها وتبعهما سراسنقر ، وتسحب بقية الصلاحية واحدًا بعد الآخر إلى الشام ونزلوا في القدس [٢] .

ثم أقام الملك الأفضل بالقاهرة ، وأصلح الأمور وقرر القواعد والمرجع في جميع الأمور إلى سيف الدين يازكوج الأسدي [٣].

ومن الأمور الجلية أن الصلاحية لم يتوقفوا عند ذلك الحد ، ولم يطب لهم ترك الديار المصرية للأسدية ، فقد بذلوا الجهود من أجل عودتهم إلى مراكزهم ، ولن يتأتى ذلك إلا بانضمامهم إلى جانب الملك العادل ؛ لذا فقد أرسلوا إليه يطلبون منه السير إلى مصر للقيام بأتابكية الملك المنصور بدلاً من الملك الأفضل

(١)العيني : المصدر السابق جـ ٣ ص ٧٥ ، ابن تغري بردي : المصدر السابق جـ ٦ ص ١٣٢.
(٢) ابن نظيف الحموي : التاريخ المنصوري ص ٧ ، ٨ .
(٣) ابن الأثير : الكامل في التاريخ جـ ١٠ ص ٢٥٦،

ويبدو أن هذه الرسالة لاقت قبولًا من الملك العادل فرد عليهم بأن لا يفارقوا مكانهم حتى يفرغ من ماردين ويصل إليهم [١] .

ثم كتب الملك الأفضل إلى عمه الملك العادل بأنه لن يخرج عن الذي يأمره به، وأنه تحت حكمه ويستطلع أوامره ونواهيه ، فورد جوابه عليه بأن الملك العزيز إن كان قد مات عن غير وصية فليكتب الأعيان خطوطهم له بذلك وشهادتهم له حتى يرى رأيه وإن كان قد مات عن وصية فلا يعدل عنها، ولن ينبغي له التعرض لديار مصر[٢].

دور المماليك الأسدية في خروج الملك الأفضل للاستيلاء على دمشق

تعددت أقوال المؤرخين حول السبب في خروج الملك الأفضل من مصر للاستيلاء على دمشق ، فتذكر بعض المصادر التاريخية أن السبب في خروج الملك الأفضل إلى دمشق من أجل القبض على المماليك الصلاحية ، بتحريض من المماليك الأسدية وتشجيعهم له خاصة وأنه قد حدثت وحشة بين الأفضل والصلاحية الأمر الذي أدى إلى فرارهم إلى القدس[٣]. وقد سبق ذكر ما فعلوه من أجل عدم تولي الملك الأفضل ، وفي ذلك يذكر ابن تغري بردي : "وكان الأفضل قد التقى النجاب المتوجه إلى دمشق ثانياً من قبل الصلاحية، وعلى يده الكتب التي تتضمن ما ذكرناه من منع الأفضل من المجيء إلى الديار المصرية، فأخذ الأفضل النجاب وعاد به إلى مصر، ولما وصل الأفضل إلى مصر التقاه الأسدية والصلاحية، ورأى جهاركس النجاب الذي أرسله ، فقال له: ما أسرع ما عدت ! فأخبره الخبر،

(١) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٣ ص ٩١ –٩٣، المقريزي : السلوك جـ١ ص ٢٥٨، ٢٥٩.
(٢) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٣ ص ٩٣، المقريزي : السلوك جـ١ ص ٢٥٩.
(٣) ابن واصل: المصدر السابقجـ ٣ ص ٩٣ ، ٩٤ ، العيني : عقد الجمان (العصر الأيوبي) جـ ٣ ص ٧٦.

فساق هو وقراجا بمن معهما من وقتهما إلى القدس وتحصنا به فلما وقع ذلك أشارت الأسدية على الأفضل بقصد دمشق ، وأن العادل مشغول بماردين"[١].

كما أورد العيني ما يدل على أن الأسدية هم الذين أشاروا على الأفضل بالخروج إلى دمشق حيث ذكر: " لما أشارت الأسدية على الأفضل بقصد دمشق نهض وسار بالعساكر إلى الشام "[٢].

وهناك من يضيف إلى السبب السابق سببًا آخر، وهو أن الملك الظاهر غازي صاحب حلب أرسل إلى أخيه الأفضل يحثه على سرعة القدوم من مصر إلى دمشق، واغتنام الفرصة في أمرها والملك العادل غائب عنها في حصار ماردين ، فقبض الصلاحية بالشام على القاصد ، وأهانوه ثم أطلقوه ، فسار إلى الأفضل، وبلغه رسالة أخيه الظاهر، فخرج الملك الأفضل إلى دمشق في منتصف جمادى الأولى من سنة(٥٩٥هـ/١١٩٩م) بعد أن أقام ببركة الجب أربعة أشهر[٣] ومعه المماليك الأسدية ، واستخلف على القاهرة سيف الدين يازكوج الأسدي ثم سار إلى دمشق، وقد بلغ الملك العادل خروجه من مصر؛ فلما علم بذلك سار إلى دمشق بعد أن ترك ولده الكامل على حصار قلعة ماردين ، فوصل إلى دمشق قبل الملك الأفضل ، ثم نزل الملك الأفضل على جسر الخشب في الثالث عشر من شعبان ، وزحف من الغد إلى البلد ، وجرى قتال عظيم ، ثم تقدم الملك الأفضل إلى الشرفين ، والميدان الأخضر ، وضرب دهليزه به[٤].

---

(١) النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ١٣٢.

(٢) العيني : النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٧٦.

(٣) ذكر المقريزي: أن الأفضل رحل من بركة الجب ثالث شهر رجب، ومعه الملك المنصور، فأقام بالعباسة خمسة أيام، ثم سار إلى دمشق، فنزل عليها في ثالث عشر شعبان من نفس السنة ، راجع : السلوك جـ١ ص ٢٥٩.

(٤) المصدر نفسه جـ١ ص ٢٥٩، ٢٦٠ ، العيني : عقد الجمان جـ ٣ ص ٧٦-٧٨.

وتقدم الأمير مجد الدين الأسدي أخو الفقيه عيسى الهكاري الأسدي في جمع قليل من العسكر فهجموا على دمشق فأراد مجد الدين أن يختص بفتح الباب وحده، فلم يعلم الأفضل، ولا أخذ معه أحداً من الأمراء، بل سار وحده بمفرده، ومعه نحو خمسين فارساً من أصحابه، ففُتح له الباب، فدخله هو ومن معه، فلما رآهم عامة البلد نادوا بشعار الأفضل واستسلم من به من الجند، ونزلوا عن الأسوار، وبلغ الخبر إلى الملك العادل، فكاد يستسلم، ولكنه تماسك(١).

وأما الذين دخلوا البلد فإنهم وصلوا إلى باب البريد، فلما رأى عسكر العادل بدمشق قلة عددهم، وانقطاع مددهم، وثبوا بهم وأخرجوهم منه، وكان الأفضل قد نصب خيمة بالميدان الأخضر وقارب عسكره باب الحديد، وهو من أبواب القلعة، ثم أشار بعض خواص الأفضل عليه بالانتقال إلى ميدان الحصى، ففعل ذلك، الأمر الذي أدى إلى تقوية الروح المعنوية لعسكر دمشق المتواجد عند باب الحديد ، وضعفت نفوس العسكر المصري، ثم إن الأمراء الأكراد كانوا متعاطفين مع عسكر دمشق ، فظن الأفضل وباقي المماليك الأسدية أنهم اتفقوا معهم ضد الأفضل ؛ فرحلوا من مكانهم إلى الخلف في العشرين من شعبان سنة (٥٩٥هـ/١١٩٩م) (٢).

ثم وصل الملك المجاهد صاحب حمص مع الملك الظاهر، صاحب حلب ، وزحفوا إلى دمشق ، وبدأوا في الحرب والقتال ، الأمر الذي أدى إلى قلة الأقوات بدمشق وطول أمد الحصار(٣) ، وهناك من يرى أن الملك المجاهد صاحب حمص

(١) ابن الأثير :الكامل جـ ١٠ ص ٢٥٧،العيني : المصدر السابق جـ ٣ ص ٨٢ ، ٨٣.

(٢) ابن الأثير : الكامل في التاريخ جـ ١٠ ص ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٣ ص ٩٩، العيني : عقد الجمان (العصر الأيوبي) جـ ٣ ص ٨٣.

(٣) ابن واصل : المصدر السابق جـ ٣ ص ٩٩.

وصل إلى الأفضل ومن بعده وصل الظاهر صاحب حلب فأراد الزحف على دمشق فمنعهم الظاهر حقدًا على أخيه وحسدًا ، ولم يعلم الأفضل بذلك(١).

ولكن هذا الرأي مخالف لسير الأحداث ، والواضح أن الملك الأفضل قد قويت عزيمته عند وصول الظاهر صاحب الحلب ، والمجاهد صاحب حمص ، وبدأوا في الزحف والقتال فور وصولهما.

وكان سيف الدين يازكوج الأسدي الذي كان الملك الأفضل قد استخلفه في مصر يرسل المؤن والإمدادات إلى الأفضل ؛ الأمر الذي دعا الملك العادل إلى إرسال قوة إلى القدس لتمنع وصول المؤن من مصر إلى الأفضل، فوجدوا سيف الدين يازكوج الأسدي قد أرسل سبعمائة من عسكر مصر نجدة للأفضل ، فقاتلوهم وهزموهم وغنموا ما معهم (٢).

ومن الأدوار التي قام بها الأسدية في تلك الأحداث هي محاولتهم منع وصول الصلاحية من القدس إلى دمشق ، حيث إن الملك العادل لما رأى كثرة العساكر وتتابع الأمدادات إلى الأفضل عظم عليه ذلك ، فأرسل إلى المماليك الناصرية بالبيت المقدس يستدعيهم إليه، فساروا آخر شعبان سنة (٥٩٥هـ/١١٩٩م) ، فوصل خبرهم إلى الأفضل ، فأرسل فرقة من الجند وقدم عليهم الملك المجاهد – صاحب حمص – ليحولوا بين الصلاحية ودخول دمشق ثم أردفهم بجماعة من الأسدية وعسكر حلب ولكن الصلاحية استطاعوا أن يسلكوا طريقاً غير الطريق التي

(١) ابن الأثير : المصدر السابق جـ ١٠ ص ٢٥٨ ، العيني : المصدر السابق جـ ٣ ص ٨٣.

(٢) المقريزي : السلوك جـ ١ ص ٢٦٠ ، ٢٦١ .

توجه إليها الملك المجاهد والأسدية ، ودخلوا دمشق خامس رمضان من نفس العام ، فقوي العادل بهم قوة عظيمة [١] .

وعلى الرغم من تلك المحاولات التي بذلها الملك العادل إلا أنها لم تخفف من حدة الحصار الذي أدى إلى اشتداد الغلاء بدمشق ؛ الأمر الذي أدى إلى اقتراضه الأموال من التجار، ثم قويت هجمات الملك الأفضل على دمشق حتى أشرفت على السقوط في يده ، كما أوشك الملك العادل على التسليم ، لولا وقوع الخلاف بين الظاهر وبين أخيه الأفضل [٢] .

فقد استطاع الملك العادل أن يبذر بذور الشقاق بين الأخوين ، بالإضافة إلى وصول الملك الكامل محمد إلى دمشق ، وكان قد رحل عن ماردين، فقوي العادل بقدومه قوة عظيمة ، ووقع الوهن في عسكر الأفضل والظاهر واتفقوا على أن يعود كل منهم إلى بلده ، فعاد الظاهر، صاحب حلب، وأسد الدين، صاحب حمص إلى بلادهما ، وعاد الأفضل إلى مصر[٣].

ولما سافر الملك الأفضل راجعاً إلى مصر أرسلت الصلاحية إلى الملك العادل يستعجلونه على الخروج إلى مصر ، فخرج في يوم الخميس تاسع ربيع الأول من سنة (٥٩٦هـ/١٢٠٠م) وسار إلى تل العجول وأقام حتى اجتمع أتباعه ، وأرسل إلى الملك الأفضل العدل النجيب أبا محمد ، الذي كان السلطان صلاح الدين يرسله في المهام ، وكان مدلول الرسالة : " ارفق في السير ، ووافق على الخير ، فما عندك اليوم من يَصْدُقُك ، وأنا لك كالوالد ، وأبلغك مقصودك ، وأحالفك ولا أخالفك

(١) ابن الأثير : الكامل جـ ١٠ ص ٢٥٨ ، ابن واصل :مفرج الكروب جـ ٣ ص ١٠٠ ، ١٠١.
(٢) أبو الفدا : المختصر جـ ٣ ص ١٢٠ ، المقريزي : السلوك جـ ١ ص ٢٦١ .
(٣) ابن الأثير : الكامل في التاريخ جـ ١٠ ص ٢٥٨ المقريزي : المصدر السابق جـ ١ ص ٢٦٣.

وأوافقك ولا أفارقك "، فأشار أمراء الأسدية والأكراد على الأفضل أن يرد جواب الرسالة :" إن مقاربتي لك بمباعدتك للصلاحية منوطة ، وموافقتي بمخالفتهم مشروطة " ، فلما سمع الصلاحية بذلك استشاطوا ونفروا من الملك الأفضل ، وكان الأفضل في ذلك الوقت على بلبيس ، ثم وصل الملك العادل، واشتبك مع الملك الأفضل في معركة انهزم فيها عسكر الملك الأفضل وولوا منهزمين ، وسار الملك العادل خلفهم ودخل القاهرة وحاصرها [١].

وفي أثناء الحصار استشار الملك الأفضل أمراء المماليك الأسدية والأكراد فوجد منهم تخاذلًا ، فقال له سيف الدين يازكوج الأسدي: " لكل زمان عمل ولكل أوان أمل ، فأصلح الأمر كيف تهيأ ، فلا ملام على اللبيب بأي زي تزيا" ، فشرع الأفضل في إصلاح الأمر مع عمه العادل فأرسل إليه في الصلح وتسليم البلاد إليه، وأخذ العوض عنها [٢] واتفقا على أن يأخذ الملك الأفضل ميافارقين وجاني وجبل جور وسميساط [٣] ، وخرج الأفضل من مصر ليلة السبت ثامن عشر ربيع الآخر سنة (٥٩٦هـ/١٢٠٠م) [٤].

ومن الجدير بالذكر أن المماليك الأسدية رغم أنهم وقفوا في بداية الأمر مع الملك الأفضل ، إلا أنهم تخلوا عنه وراسلوا الملك العادل ، وكانت هزيمة الملك الأفضل بسبب تخاذل المماليك الأسدية في الدفاع عن مصر ، ومكاتبتهم للملك العادل واتفاقهم معه ضد الأفضل [٥] ، وفي ذلك يذكر العيني : " لما سار العادل

(١) أبو شامة : الروضتين جـ ٤ ص ٢٦٦ .

(٢) أبو شامة : المصدر السابق جـ ٤ ص ٢٦٥ – ٢٦٧.

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٣ ص ١٠٩.

(٤) ابن الأثير : الكامل جـ ١٠ ص٢٦٦، ابن سباط : تاريخ ابن سباط جـ ١ ص ٢٢٨.

(٥) أبو شامة : الروضتين جـ ٤ ص ٢٦٧ ، ابن واصل : المصدر السابق جـ ٣ ص ١٠٨ .

وراء الأفضل رتب بدمشق ولده المعظم عيسى وبعض الأمراء ، وجد نحو مصر فإن الأمراء الأسدية والناصرية الصلاحية أشاروا عليه بقصدها ، وأن يكون ابن العزيز مستمرًا في السلطنة وهو المدبر له والمشير إلى أن يكبر " [١].

وذكر أبو شامة : " أنه لم يبق من الأمراء لم يكتب إليه ولم يخامر إلا أربعة أخلصهم سيف الدين يازكوج وهو الذي قدمه العادل وحكمه على الرغم من إخلاصه للأفضل [٢]، وقيل أن سيف الدين يازكوج الأسدي هو الذي قام بالصلح والتوسط بين العادل والأفضل [٣] ، وفي ذلك يذكر ابن تغري: "ورحل الأفضل من مصر في شهر ربيع الآخر، ودخل العادل إلى القاهرة، وأحسن إلى أزكش، وقال للأفضل: جميع من كان معك كاتبني إلا سيف الدين أزكش، ثم قدم العادل أزكش المذكور وحكمه في البلاد"[٤].

دور المماليك الأسدية في عزل المنصور وسلطنة العادل

كما كان الأسدية هم السبب الأقوى في تولية الملك المنصور ابن الملك العزيز ، فقد كانوا – أيضًا–هم السبب في عزله في شوال سنة(٥٩٦هـ/١٢٠٠م) ويؤكد ذلك ما ذكره ابن واصل: " أن السبب في ذلك أن الأسدية لما رأوا الصلاحية قد قاموا مع الملك العادل حتى أدخلوه مصر ، وأخرجوا منها الأفضل ، خافوا استيلاءهم على الأمر ، فحسنوا للملك العادل الاستقلال بالأمر وعزل الملك المنصور تقرباً إليه ، وحلفوا له على ذلك ، فلما بلغ ذلك الصلاحية نفروا منه

(١) العيني : عقد الجمان جـ ٣ ص ١٠٣.

(٢) أبو شامة : الروضتين جـ ٤ ص ٢٦٧ .

(٣) العيني: عقد الجمان جـ ٣ ص ١٠٢،ابن تغري بردي :النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ١٣٥.

(٤) ابن تغري بردي : المصدر السابق جـ ٦ ص ١٣٥ .

وأنكروه ، واجتمع بعضهم ببعض ، وعزموا على القيام على الملك العادل ، وطلبوا من الأسدية موافقتهم على ذلك فلم يفعلوا ، واستتب أمر الملك العادل ، وحلف الجميع له" (١).

وذكر ابن واصل رواية أخرى عن ابن الأثير: " أن السبب في ذلك أن الملك العادل أحضر جماعة من الأمراء ممن يعلم ميلهم إليه ، وقال: إنه قبيح بي أن أكون أتابكًا مع الشيخوخة والتقدم ، مع أن المُلْكَ ليس هو بالميراث وإنما هو لمن غلب، ولقد كان يجب أن أكون بعد أخي السلطان الملك الناصر – رحمه الله – صاحبَ الأمر، غير أني تركتُ ذلك إكراماً لأخي ورعاية لحقه ، فلما حصل من الاختلاف ما حصل خفت أن يخرج المُلْكُ من يدي ويد أولاد أخي ، فمشَّيت الأمر إلى آخره ، فلم أرَ الأمر يصلح إلا بقيامي فيه ونهوضي بأعبائه ولما ملكت هذا البلد وطنَّت نفسي على القيام بأتابكية هذا الصبي حتى يبلغ أشدَّه، فرأيت العصبيات غير مقلعة والفتن ليست زائلة ، وأنا أرى أن هذا الصبي يمضي إلى الكتّاب وأقيم له من يؤديه ويعلمّه فإذا بلغ أشده نظرت في أمره وقمت بمصالحه" (٢).

ويبدو أن المماليك الأسدية كانوا في ذلك الوقت يستطيعون أن يتحكموا في سير الأحداث ، وأن يفرضوا رغبتهم على غيرهم من العسكر كالصلاحية والأكراد ويبدو أنهم كانوا من القوة بحيث يستطيعون السيطرة على مقدرات الأمور ، ويؤكد ذلك ما أورده المقريزي ، حيث ذكر: " هذا والأسدية كلهم موافقون للملك العادل ، فلم يجد من عداهم بدًا من موافقته ، فحلفوا له وخلعوا المنصور في يوم الخميس ، وخطب للعادل من الغد يوم الجمعة حادي عشر شوال " (٣).

(١) مفرج الكروب جـ ٣ ص ١١١، ١١٢ .

(٢) مفرج الكروب جـ ٣ ص ١١١ .

(٣) المقريزي : السلوك جـ ١ ص ٢٦٥.

وهكذا استطاع الملك العادل أن يعزل الملك المنصور، ويتولى السلطنة بتأييد ودعم من المماليك الأسدية ، على الرغم من معارضة المماليك الناصرية . (١).

وهكذا استطاع المماليك الأسدية بتأييدهم للملك العادل ووقوفهم بجانبه أن يحافظوا على مراكزهم وينضموا إلى جيشه ، ويحتفظوا بإقطاعاتهم ، وينالوا الحظوة عنده حتى من لم يؤيده منهم مثل: سيف الدين يازكوج الأسدي الذي قدمه الملك العادل وحكمه في البلاد على الرغم من إخلاصه للملك الأفضل (٢)، كما أنه عندما استتبت الأمور للملك العادل بالقاهرة ندب من الأسدية والصلاحية أميرين كبيرين إلى الشام لإصلاح ذات البين بحمص وحماة وحلب وغيرهما ، وهما سراسنقر وكرجي (٣).

ولما استقر المُلْك بمصر للملك العادل استدعى أبنه الملك الكامل وجعله نائباً عنه بالديار المصرية واستمر إلى أن توفي أبوه وذلك قريب من عشرين سنة واستقل بالملك بعده عشرين سنة وكسراً (٤).

موقف الأسدية من محاولة الأفضل والظاهر الاستيلاء على دمشق

بعد أن استطاع الملك العادل تولي السلطنة بعد عزل الملك المنصور ابن الملك العزيز أصبح المماليك الأسدية موالين للملك العادل وانضموا إلى جيشه ، حيث إنهم كانوا ينضمون إلى الطرف الذي يمكن أن يدعم مصالحهم الشخصية ويحفظ لهم نفوذهم كما سبق ذكره.

(١) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٣ ص ١١٢.

(٢) أبو شامة : الروضتين جـ ٤ ص ٢٦٧ .

(٣) المصدر نفسه جـ ٤ ص ٢٦٨.

(٤) أبن واصل : المصدر السابق جـ ٣ ص ١١٣.

أما المماليك الصلاحية فكانوا رافضين لعزل الملك المنصور، فاتفقوا مع ميمون القصري[١] على الانضمام إلى الملك الأفضل والظاهر[٢] ، ثم أرسلوا إلى الملك الأفضل والظاهر يحثونهما على أخذ دمشق واستعادة الديار المصرية ، فلما وصلت الرسائل إليهما جمعا الجيوش وعزما على قصد دمشق[٣].

وتوجه الأفضل والظاهر إلى دمشق بعد منازلة حماة ، وانضم إليهما ميمون القصري ومن وافقه من المماليك الصلاحية ، وكان الاتفاق أن يتسلم الأفضل دمشق بعد الاستيلاء عليها ، ثم يسيرون إلى مصر فإذا ملكوها يتسلم الأفضل مصر وتكون دمشق للظاهر مع بقية بلاد الشام [٤].

وقد خرج الأسدية مع بقية العسكر المصري مع الملك العادل لما بلغه توجه الأفضل والظاهر إلى دمشق ونزل بنابلس ، ثم أرسل مجموعة من العسكر إلى دمشق فدخلوها قبل أن يصل الأفضل والظاهر إليها ، ولما وصل الأفضل والظاهر

(١) الأمير فارس الدين أبا سعد ميمون بن عبد الله القصري أحد الأمراء الأيوبيين، صاحب نابلس، كان فارس الدين من أمراء الدولة الصلاحية ، وهو آخر من بقي من أمراء الصلاحية وهو منسوب إلى قصر الخلفاء الفاطميين بمصر، ومات بحلب سنة (٦١٠هـ/١٢١٤م) . العيني : عقد الجمان جـ ٣ ص ٢٨٠.

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٣ ص ١١٧- ١١٩.

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ جـ ١٠ ص ٢٦٩ ، ابن واصل : المصدر السابق جـ ٣ ص١٢٠.

(٤) ابن الأثير : المصدر السابق جـ ١٠ ص ٢٧٠ ،ابن واصل : المصدر السابق جـ ٣ ص١٢٠.

بدأوا بالهجوم على دمشق في الرابع عشر من ذي القعدة سنة (٦٩٧هـ/١٢٠١م) حتى كادا أن يملكا البلد لولا دخول الليل [١].

ثم بدأت عوامل الشقاق تظهر بين الأخوين ؛ حيث إن الملك الظاهر لما تيقن أن دمشق ستسقط طمع فيها لنفسه ، وهناك من يعزي السبب أن الملك العادل أرسل لكل منهما يعرفه أن أخاه يريد البلد لنفسه ؛ فطلب كل منهما البلد لنفسه ووقع الخلاف بينهما ، ثم كتب إلى الملك الأفضل يعده بالبلاد التي عينت له في الشرق وبذل له أموالاً ؛ الأمر الذي أدى إلى فتور عزيمته [٢].

كما حدث أن قام بعض الأمراء الصلاحية بالهرب من معسكر الأفضل والظاهر فلما وقعت تلك الأحداث رحل الملك الأفضل والظاهر عن دمشق[٣].

وقد ذكر ابن الأثير: أنهم رحلا عن دمشق في أول المحرم سنة (٥٩٨هـ/١٢٠٢م) [٤] ، وكذلك ذكر ابن واصل[٥] ، بينما يذكر أبو شامة: أنهم رحلوا عن دمشق في سلخ ذي الحجة من سنة (٥٩٧هـ /١٢٠١م) [٦].

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ جـ ١٠ ص ٢٧٠ ، ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٣ ص١٢٤-١٢٦.

(٢) ابن واصل : المصدر السابق جـ ٣ ص١٢٦.

(٣) ابن الأثير : المصدر السابق جـ ١٠ ص ٢٧٠ ، ابن واصل : المصدر السابق جـ ٣ ص١٢٤-١٢٦.

(٤) ابن الأثير : المصدر السابق جـ ١٠ ص ٢٧١.

(٥) ابن واصل : المصدر السابق جـ ٣ ص١٢٩.

(٦) الذيل على الروضتين ص ٣٢.

دور الأسدية في جهاد الصليبيين في زمن خلفاء صلاح الدين

لم يكن دور المماليك الأسدية في زمن خلفاء صلاح الدين مقصورًا على المشاركة في الحروب الداخلية في البيت الأيوبي ، بل كان لهم دور في جهاد الصليبيين ، ومن ذلك ما حدث في عهد الملك العزيز سنة (٥٩٤هـ/١١٩٨م) عندما كان عز الدين أسامة قد ترك جماعة من الأجناد في قلعة بيروت يحفظونها وذلك بعد أن خرَّب رَبَضها، فخافوا من الصليبيين وانهزموا، وبقيت القلعة خالية ليس فيها من يذبُّ عنها، وعلم الصليبيون بذلك فملكوها واستولوا عليها فلعن الناس أسامة لتفريطه فيها ، ثم سير الملك العادل إلى الملك العزيز يطلب منه النجدة فوصلت إليه العساكر من مصر وفيهم الأسدية والصلاحية والأكراد وغيرهم ووصل إليه سنقر الكبير – صاحب القدس – وميمون القصرى – صاحب نابلس – ونزل بهم على تل العجول بالقرب من غزة وكان قبل ذلك قد وقع جمع من الصليبيين بأجناد في أطراف بلد القدس فقتلوا منهم جماعة، وأسروا جماعة، ورجعوا بغنائم كثيرة ثم قصد الملك العادل بالعساكر يافا، فدخلها عنوة بالسيف وقتل مقاتلتها وأعيان من بها من الصليبيين ، فامتلأت أيدي المسلمين بالسبى والغنائم [١].

ولما قام الملك العادل بفتح يافا عظم ذلك على الصليبيين ، فقصدوا تِبنْين، فنازلوها بفارسهم وراجلهم وأحدقوا بها وضايقوها ونزل الملك العادل أمامهم ، وبعث إلى الملك العزيز يحثه على الخروج إليه بنفسه، فجمع العزيز عساكر مصر الأسدية والصلاحية والأكراد وأمرهم بالخروج ، فسارت إليه العساكر من مصر، ومن القدس وغيرها ، ثم خرج الملك العزيز بنفسه ، ومعه سائر عساكر مصر لقتال

(١) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٣ ص٧٤، المقريزي : السلوك جـ١ ص ٢٥٣ ، العيني: عقد الجمان جـ ٣ ص ٦٠.

الصليبيين ، فنزل على الرملة ، وقَدِم الأسدية والصلاحية وعليهم الأمير سنقر الدوادار، وسرا سنقر وعلاء الدين شقير، وعدة من الأكراد، فلحقوا بالملك العادل وهو على تبنين ، وسار العزيز في أثرهم ، فكانت بينهم وبين الصليبيين وقائع شهيرة، أدت إلى رحيل الصليبيين إلى صور، وركب العادل والعزيز أقفيتهم فقتلوا منهم الكثير ، وترك العزيز العساكر عند العادل ، وجعل إليه أمر الحرب والصلح ورجع إلى القاهرة في ثامن جمادى (٥٩٤هـ/١١٩٨م) [١] ، واستمر العادل يوالي الغارات على الصليبيين ، حتى راسلوه في طلب الصلح فأجاب إليه وحلّف أمراء عسكره لهم ، وأنفذ إلى مقدمي الصليبيين من استخلفهم واستقرت الهدنة ثلاث سنين، ورجع الملك العادل إلى دمشق، وتفرقت الجند جميعها إلى بلادها [٢].

كما شارك الأسدية مع الملك العادل في الوقوف ضد الصليبيين عندما اجتمعوا بمرج عكا وهاجموا عددًا من بلدان المسلمين في سنة (٦٠١هـ/١٢٠٥م) حتى تم الصلح[٣] .

وشارك الأسدية في حرب الصليبيين سنة (٦٠٥هـ/١٢٠٩م) عندما اتّفق الصليبيون من طرابلس وحصن الأكراد على الإغارة على أعمال حمص ، فتوجّهوا إليها وحاصروها ، فعجز أسد الدين شيركوه عن ردهم ، ونجده ابن عمّه الملك الظاهر غازى ، فعاد الصليبيون إلى طرابلس ، وبلغ السلطان العادل ، فخرج إليهم

(١) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٣ ص٧٦، المقريزي : السلوك جـ١ ص٢٥٣ ، العيني: عقد الجمان جـ ٣ ص ٦٠ ، ٦١.

(٢) ابن واصل : المصدر السابق جـ ٣ ص ٧٨ ، المقريزي : المصدر السابق جـ١ ص٢٥٣

(٣) ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات جـ ٥.

من مصر بالجيوش وقصد عكّا، فصالحه صاحبها، فسار حتّى نزل على بحيرة قدس ، وأغار على بلاد طرابلس وأخذ من أعمالها حصنا صغيرا [١].

وظائف المماليك الأسدية في زمن خلفاء صلاح الدين

قلد خلفاء صلاح الدين المماليك الأسدية العديد من الوظائف في مصر وأولوهم نفس الثقة التي كان يوليها لهم صلاح الدين من قبل.

ومن تلك الوظائف :

نيابة الغيبة

وهي من الوظائف المهمة التي تعكس ثقة البيت الأيوبي في المماليك الأسدية ، فكان الملك العزيز يستنيب بهاء الدين قراقوش في القاهرة أثناء غيابه عنها ، فعندما خرج إلى مخيمه ببركة الجب في التاسع عشر من ربيع الآخر سنة (٥٩٠هـ/١١٩٤م) استنابه في غيبته ، ومعه ثلاثة عشر أميرًا ونحو سبعمائة فارس [٢].

كما استنابه بالقاهرة عندما خرج إلى دمشق لمحاربة الملك الأفضل سنة (٥٩١هـ/١١٩٥م) ، وعلى الرغم من تخلي المماليك الأسدية عن الملك العزيز عثمان في ذلك الوقت إلا أن بهاء الدين قراقوش ظل على إخلاصه له [٣]، واستنابه عندما خرج إلى الإسكندرية في ذي الحجة سنة (٥٩٢هـ/١١٩٦م) [٤].

---

(١) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ١٧٤.

(٢) المقريزي : السلوك جـ ١ ص ٢٣٥.

(٣) المصدر نفسه جـ ١ ص ٢٣٨.

(٤) المصدر نفسه جـ ١ ص ٢٤٩.

ولم يكن الملك العزيز فقط هو الذي استناب أميرًا من المماليك الأسدية أثناء غيابه ، فقد قام بهذا الأمر – أيضًا – الملك الأفضل ، وذلك عندما خرج بالجيش للاستيلاء على دمشق في سنة (٥٩٥هـ/١١٩٩م) فقد أناب عنه في الديار المصرية الأمير سيف الدين يازكوج الأسدي[١].

مقدم المماليك الأسدية

وهي من الوظائف المهمة في الدولة الأيوبية ، وقد تولاها الأمير سيف الدين يازكوج الأسدي في عهد الملك العزيز ، يدلنا على ذلك ما أورده ابن الأثير عند اجتماع الأمراء بعد موت الملك العزيز حيث ذكر : "اجتمع فخر الدين جهاركس مقدم الصلاحية ، وسيف الدين يازكوج الأسدي مقدم الأسدية ليتفقا على من يتولي الملك "[٢] ، كما نقل ابن واصل هذه الرواية عن ابن الأثير [٣] ، كما تولى سيف الدين يازكوج هذه الوظيفة في عهد الملك العادل[٤].

شد الدواوين

شاد : من الشد بمعنى الضبط والتفتيش ، والشاد موظف من العصرين الأيوبي والمملوكي كانت الدولة تعهد إليه بالقيام ببعض الأعمال التي يضاف اسمها إلى هذا اللقب مثل : شاد الأوقاف ، وشاد الخاص وشاد الحوش، وشدّ الدواوين أي

(١) العيني : عقد الجمان (العصر الأيوبي) جـ ٣ ص ٧٦، ابن تغري بردي:النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ١٣٢.

(٢) الكامل في التاريخ جـ ١٠ ص ٢٥٥.

(٣) مفرج الكروب جـ ٣ ص ٨٨.

(٤) أبو شامة : الروضتين جـ ٤ ص ٢٦٧ .

فتشها وضبط حساباتها [١] ، وذكر القلقشندي أن :" موضوعها أن يكون صاحبها رفيقا للوزير متحدّثا في استخلاص الأموال ، وما في معنى ذلك "[٢].

وقد تولى هذه الوظيفة من المماليك الأسدية الأمير بهاء الدين قراقوش الأسدي الذي يبدو مما ذكرته المصادر التاريخية أنه كان مصدر ثقة للسلطان صلاح الدين وابنه الملك العزيز ؛ حيث أسند إليه الملك العزيز عثمان وظيفة شد الأموال بالدواوين ، في ربيع الآخر من سنة (٥٩٢هـ/١١٩٦م)[٣] .

شد الزكاة

وقد أورد القلقشندي وظيفة شد الدواوين في حديثه أرباب الوظائف بدمشق فذكر : " وموضوعها التحدّث على متجر الكارم ونحوه "[٤] وقد تولاها في زمن العزيز عثمان الأمير بهاء الدين قراقوش في ربيع الآخر من سنة (٥٩٢هـ/١١٩٦م)[٥]، وفي ذلك يذكر المقريزي : " فكمل شد المال له"[٦].

نظر المظالم

(١) الخطيب : معجم المصطلحات والألقاب التاريخية ص ٢٦٥، محمد دهمان : معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي ص ٩٥.

(٢) صبح الأعشى جـ ٤ ص ٢٢.

(٣) المقريزي : السلوك جـ ١ ص ٢٤٥.

(٤) القلقشندي : صبح الأعشى جـ ٤ ص ١٨٧.

(٥) المقريزي : المصدر السابق جـ ١ ص ٢٤٥.

(٦) المصدر نفسه جـ ١ ص ٢٤٥.

عرفها الماوردي بأنها: "قود المتظالمين إلى التناصف بالرهبة وزجر المتنازعين عن التجاحد بالهيبة"[١] وهي إحدى الوظائف المهمة في الدولة ، وقد أشار القلقشندي إلى أنها من وظائف أرباب السيوف[٢].

وتولاها من المماليك الأسدية الأمير بهاء الدين قراقوش في شوال من سنة(٥٩٢هـ/١١٩٦م) في عهد الملك العزيز عثمان [٣] .

وهكذا نرى أن المماليك الأسدية نالوا الحظوة عند خلفاء صلاح الدين الأيوبي كما نالوها في حياته .

تواري دور المماليك الأسدية

يتضح مما سبق الدور الكبير الذي قام به المماليك الأسدية في الدولة الأيوبية ، ذلك الدور الذي استمر إلى زمن السلطان العادل ، حيث انضم المماليك الأسدية إلى جيشه وشاركوا معه في حروبه المختلفة ، خاصة وأنهم السبب في إدخاله مصر وتملكه إياها ، وإخراج الأفضل منها.

ولكن قبل أواسط عهد السلطان العادل توارى دور المماليك الأسدية ، حيث إنه لم تذكر المصادر التاريخية أي إشارات تشير إلى أي دور قام به المماليك الأسدية بعد ذلك التاريخ ، خاصةً بعد موت قادتهم الكبار من أمثال: بهاء الدين قراقوش الذي توفي في سنة (٥٩٧هـ/١٢٠١م) [٤] ، كما توفي سيف الدين يازكوج في

(١) الماوردي : الأحكام السلطانية والولايات الدينية ، تحقيق / د. أحمد مبارك البغدادي ، دار ابن قتيبة – الكويت ١٩٨٩م ص ١٠٢.

(٢) القلقشندي : المصدر السابق جـ ١٠ ص ٢٤٣.

(٣) المقريزي : السلوك جـ ١ ص ٢٤٨.

(٤) ابن أيبك الدواداري : كنز الدرر وجامع الغرر جـ ٧ ص ١٥١.

سنة(٥٩٩هـ/ ١٢٠٣م) [١] وتوفي علم الدين كرجي الأسدي في سنة (٥٩٩هـ/ ١٢٠٣م) [٢].

(١) أبو شامة : الذيل على الروضتين ص ٥٢.

(٢) العيني : عقد الجمان جـ ٣ ص ١٧١.

والذي لا شك فيه أن يكون الأسدية قد مات معظمهم والبقية القليلة الباقية تقدمت في السن ، وتوارى دورهم ولم يصبح لهم أي تأثير في الأحداث في ذلك الوقت ، وبرزت بعد ذلك أدوار لفرق أخرى حلت محلهم مثل: المماليك العادلية والكاملية والأشرفية.

الخاتمة

يجدر بي بعد أن انتهيت – بحمد الله – أن أوضح النتائج التي أبرزها البحث بإيجاز شديد ، وهي كالتالي:

أولاً: ألقى البحث بالضوء على المماليك الأسدية ، ودورهم في العصر الزنكي تحت قيادة سيدهم أسد الدين شيركوه ، حيث كان دورهم في تلك الفترة مقتصرًا على النواحي العسكرية فقط ، كما أثبت البحث أنهم كان لهم مشاركة فاعلة في حروب نور الدين زنكي وفتوحاته، ولهم دور في حملات أسد الدين شيركوه الثلاث على مصر.

ثانياً : أثبت البحث أن المماليك الأسدية كان لهم دور كبير في تولي صلاح الدين الوزارة ؛ حيث كانوا في ذلك الوقت قوى فاعلة لها نفوذها الذي يمكِّنها من التدخل في مجريات الأحداث على الرغم من قلة عددها.

ثالثاً: بيَّن البحث أن الأسدية كانوا – بالإضافة إلى المماليك الصلاحية – هم نواة الجيش الأيوبي الذي كونه السلطان صلاح الدين ، والذي استعاض به عن الجيش الفاطمي ، والذي كان يطلق عليه العسكر المصري.

رابعاً: أثبت البحث أن الأسدية شاركوا في الحروب التي خاضها السلطان صلاح الدين داخل مصر وخارجها ، حيث شاركوا في القضاء على الثورات والقلاقل السياسية في مصر التي أثارها أتباع الخلافة الفاطمية ، كما شاركوا في الدفاع عنها ضد الأخطار الخارجية ، وكذلك في توحيد الجبهة الإسلامية ، كما شاركوا في جهاد الصليبيين في عهد السلطان صلاح الدين وخلفائه.

خامساً: أثبت البحث أن الأسدية كان لهم دور فاعل في تسيير الأحداث في مصر في زمن خلفاء السلطان صلاح الدين ، فقد أثروا بشكل كبير في سير الأحداث أثناء النزاع بين خلفاء صلاح الدين ، وكانوا قوةً يحسب لها حساب في

ذلك الوقت حيث استطاعوا أن يدخلوا الملك العادل مصر ويخرجوا منها الملك الأفضل .

سادساً: أوضح البحث أن الأسدية كانوا موضع ثقة السلطان صلاح الدين فأسند إلى بعضهم العديد من الوظائف مثل ولاية عكا وولاية قلعة حلب ، وكذلك الإشراف على الإنشاءات العسكرية مثل سور القاهرة والقلعة وتحصين عكا ، وكانوا كذلك في زمن خلفاء صلاح الدين.

هذا وبالله التوفيق

المصادر والمراجع

أولا : المصادر

- ابن الأثير(عز الدين أبو الحسن على بن الأثير ٦٣٠هـ / ١٢٣٢م)

١. "الكامل فى التاريخ " جـ ١٠ تصحيح ومراجعة / محمد يوسف الدقاق ، دار الكتب العلمية – بيروت ٢٠٠٣م

- ابن أيبك (أبو بكر عبد الله بن أيبك الدوادار ٧٣٣هـ / ١٣٢١م)

٢. " كنز الدرر وجامع الغرر" جـ ٧ (الدر المطلوب فى أخبار ملوك بنى أيوب) تحقيق / د . سعيد عاشور القاهرة ١٩٧٢م .

- البندارى (الفتح بن على البندارى ق ١٢ هـ)

٣. " سنا البرق الشامى " (مختصر عن البرق الشامى للعماد الأصفهانى) تحقيق / د. فتحية النبراوى ، مكتبة الخانجى – القاهرة ١٩٧٩م.

- ابن تغرى بردى(جمال الدين أبو المحاسن يوسف ت٨٧٤هـ /١٤٧٠م)

٤. "النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة" جـ ٦تعليق/ محمد حسين شمس الدين دار الكتب العلمية – بيروت ١٩٩٢م .

- الحموي (محمد بن على بن نظيف الحموى)

٥. "التاريخ المنصورى " أو " تلخيص الكشف والبيان فى حوادث الزمان " تحقيق / أبو العيد دودو ، مطبعة الحجاز – دمشق ١٩٨١م .

- الحميرى (محمد بن عبد المنعم الحميرى)

٦. "الروض المعطار فى خبر الأقطار" تحقيق / د. أحسان عباس – مؤسسة ناصر الثقافية – بيروت ط٢ ١٩٨٠م.

- الحنبلي (أحمد بن إبراهيم الحنبلى ت ٨٧٦هـ /١٤٧١م)

٧. "شفاء القلوب فى مناقب بنى أيوب" تحقيق / مديحة الشرقاوى ، مكتبة الثقافة الدينية – القاهرة ١٩٩٦م .

- ابن خلكان (شمس الدين أحمد بن محمد ت ٦٨١هـ/١٢٨٢م)

٨. "وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان " جـ١ ، ٢ تحقيق / د. أحسان عباس ، دار صادر – بيروت (د.ت).

- الذهبي (شمس الدين أحمد بن قايماز ت ٧٤٨هـ/١٣٤٨م)

٩. "تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام " جـ ٣٩ ، ٤٠ ، ٤٢ ، ٤٦ تحقيق/ د. عمر عبد السلام تدمرى ، دار الكتاب العربى – بيروت ١٩٩٦ م .

١٠. "دول الإسلام " جـ٢ تحقيق / حسن إسماعيل مروة ، دار صادر – بيروت ١٩٩٩م .

١١. "العبر فى خبر من غبر " جـ ٣ تحقيق /أبو هاجر محمد السعيد ابن بسيوني زغلول دار الكتب العلمية – بيروت ١٩٨٥م .

- ابن سباط (حمزة بن أحمد الغربي ت بعد ٩٢٦هـ/١٥٢٠م)

١٢. "صدق الأخبار" المعروف بتاريخ ابن سباط جـ ١ تحقيق / عمر عبد السلام تدمري جروس برس– طرابلس ١٩٩٣م.

- أبو شامة (عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسى ت٦٦٥هـ/ ١٢٦٧م) .

١٣. "تراجم رجال القرنين السادس والسابع " المعروف بـ" الذيل على الروضتين "

تعليق / إبراهيم شمس الدين ، دار الكتب العلمية – بيروت ٢٠٠٢م.

١٤. "الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية " ٤ أجزاء ، تعليق/ إبراهيم شمس الدين ، دار الكتب العلمية– بيروت ٢٠٠٢م .

- ابن شداد (القاضى بهاء الدين بن شداد ت ٦٣٢هـ/١٢٣٤م)

١٥. "النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية" أو "سيرة صلاح الدين الأيوبى " تحقيق / جمال الدين الشيال ، مكتبة الخانجي– القاهرة ١٩٩٤م

- ابن العماد الحنبلي (عبد الحي بن أحمد بن محمد ت ١٠٨٩هـ/١٦٧٩م)

١٦. "شذرات الذهب في أخبار من ذهب" جـ ٧ تحقيق/ محمود الأرناؤوط ، دار ابن كثير، دمشق – بيروت ١٩٨٦ م

- العماد الكاتب (محمد بن محمد الأصفهاني ت ٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م)

١٧. "البرق الشامي" تحقيق / فالح حسين ، مؤسسة عبد الحميد شومان ، عمان – الأردن ١٩٨٧م

١٨. "حروب صلاح الدين وفتح بيت المقدس (الفتح القسي في الفتح القدسي)" دار المنار– بيروت ٢٠٠٤م

- العيني (بدر الدين محمود بن أحمد بن موسى ت ٨٥٥هـ/ ١٤٥١م)

١٩. "عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان " (العصر الأيوبي)جـ٢ ، ٣ تحقيق / د. محمود رزق محمود – دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة ٢٠١٠ م .

- أبو الفدا (عماد الدين إسماعيل بن على ت ٧٣٢هـ/ ١٣٣١م)

٢٠. "المختصر في أخبار البشر" جـ٣ تحقيق / محمد زينهم محمد عزب وآخر ، دار المعارف –القاهرة ١٩٩٩م.

- ابن الفرات (ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم ت ٨٠٧ هـ/ ١٤٠٥م)

٢١. "تاريخ بن الفرات" جـ ٤ ، ٥ تحقيق / د. حسن الشماع جامعة البصرة – البصرة ١٩٧٠م.

- القلقشندى (أبو العباس احمد بن على ت ٨٢١هـ/١٤١٨م)

٢٢. "صبح الأعشى فى صناعة الإنشا "جـ٤ ، ١٠ المطبعة الأميرية – القاهرة ١٩١٤م.

- ابن كثير (إسماعيل بن كثير الدمشقي ت ٧٧٤هـ / ١٣٧٢م)

٢٣. "البداية والنهاية " جـ ١٦ ، تحقيق /عبد الله بن عبد المحسن التركي ، هجر للطباعة والنشر –القاهرة ١٤١٩هـ/١٩٩٨م .

- الماوردي (علي بن محمد بن محمد البصري ت ٤٥٠هـ/١٠٥٩م)

٢٤. " الأحكام السلطانية والولايات الدينية " ، تحقيق / د. أحمد مبارك البغدادي ، دار ابن قتيبة – الكويت ١٩٨٩م

- المقريزي (تقي الدين أحمد بن علي ت ٨٤٥هـ / ١٤٤٢م)

٢٥. "إتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا" جـ٣ تحقيق / محمد حلمي محمد أحمد مؤسسة الأهرام – القاهرة ١٩٩٦م .

٢٦. " السلوك لمعرفة دول الملوك" جـ ١ تحقيق / محمد عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية – بيروت ١٩٩٧م .

٢٧. "المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار" المعروف بخطط المقريزي جـ ١ دار الكتب العلمية– بيروت ١٩٩٨م .

- ابن واصل (محمد بن سالم بن واصل ت ٦٩٧هـ / ١٢٩٧م)

٢٨. "مفرج الكروب في أخبار بني أيوب " جـ١ ، ٢ ، ٣ تحقيق / د. جمال الدين الشيال ، دار الفكر العربي ، القاهرة (د.ت) .

- اليافعي (عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان ت ٧٦٨هـ / ١٣٦٦م)

٢٩. "مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان" جـ٣ تحقيق / خليل المنصور ، دار الكتب العلمية – بيروت ١٩٩٧م

- ياقوت (شهاب الدين أبو عبد الله الحموي ت ٦٢٦هـ / ١٢٢٩م)

٣٠. " معجم البلدان " خمسة أجزاء دار صادر – بيروت ١٩٧٧م .

ثانياً : المراجع العربية والمعربة

- ألبير شاندور

١. "صلاح الدين الأيوبي البطل الأنقى في الإسلام" ، ترجمة / سعيد أبو الحسن ، طلاس للدراسات والترجمة والنشر – دمشق ١٩٩٣م.

- أحمد الشامي (دكتور)

٢. "صلاح الدين والصليبيون (تاريخ الدولة الأيوبية)" ، مكتبة النهضة العربية –القاهرة ١٩٩١م

- أحمد مختار العبادي (دكتور)

٣. "تاريخ الأيوبيين والمماليك" دار النهضة العربية للطباعة والنشر-بيروت ١٩٩٥م .

- حسين مؤنس(دكتور)

٤. " أطلس تاريخ الإسلام " الزهراء للإعلام العربي – القاهرة ١٩٨٧م.

- سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور)

٥. "الأيوبيون والمماليك في مصر والشام " دار النهضة العربية ، القاهرة ١٩٩٦م.

- السيد الباز العريني

٦. "الشرق الأدنى في العصور الوسطى(الأيوبيون)" دار النهضة العربية – بيروت ١٩٦٧م.

- شاكر مصطفى

٧. "صلاح الدين الفارس المجاهد والملك الزاهد المفترى عليه " دار القلم ، دمشق ١٩٩٨م .

- عبد الرحمن زكي (دكتور)

٨. "الجيش المصري في العصر الإسلامي من الفتح العربي إلى معركة المنصورة" ، مكتبة الأنجلو المصرية – القاهرة ١٩٧٠م

- عبد المنعم ماجد (دكتور)

٩. "الدولة الأيوبية في تاريخ مصر الإسلامية" ، دار الفكر العربي -القاهرة ١٩٩٧م .

- عثمان عبد الحميد عشري(دكتور)

١٠. "الإسماعيليون في بلاد الشام على عصر الحروب الصليبية" ، كلية الآداب –جامعة القاهرة بالخرطوم ١٩٨٣م.

- علي بيومي

١١. "قيام الدولة الأيوبية في مصر" دار الفكر الحديث للطبع والنشر – القاهرة ١٩٥٢م

- علي محمد الصلابي (دكتور)

١٢. "الأيوبيون بعد صلاح الدين والحملات الصليبية من الرابعة إلى السابعة" ، دار ابن الجوزي – القاهرة ٢٠٠٨م .

١٣. "الدولة الزنكية ونجاح المشروع الإسلامي بقيادة نور الدين محمود "الشهيد" في مقاومة التغلغل الباطني والغزو الصليبي " ، دار المعرفة – بيروت ٢٠٠٧م.

١٤. "صلاح الدين الأيوبي وجهوده في القضاء على الدولة الفاطمية وتحرير بيت المقدس" ،دار المعرفة – بيروت ٢٠٠٨م.

- كمال موريس شربل

١٥. الموسوعة الجغرافية للوطن العربي ، دار الجيل– بيروت ١٩٩٨م.

- محسن محمد حسين (دكتور)

١٦. "الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين" ، دار آراس ، أربيل – كردستان العراق ٢٠٠٢ م

- محمد أحمد دهمان

١٧." معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي " دار الفكر – دمشق ١٩٩٠م.

- محمد رمزي :

١٨. "القاموس الجغرافي للبلاد المصرية من عهد قدماء المصريين إلى سنة ١٩٤٥م" ق٢ جـ ١ ، الهيئة العامة المصرية للكتاب ١٩٩٥م .

- محمد سهيل طقوش(دكتور)

١٩. "تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام وإقليم الجزيرة" ، دار النفائس للطباعة والنشر– بيروت ١٩٩٩م.

- محمد المطوي

٢٠. "الحروب الصليبية في المشرق والمغرب" ، دار الغرب الإسلامي – تونس ١٩٨٢م

- مسعود الخوند

٢١. "الموسوعة التاريخية الجغرافية" جـ ١٠ دار رواد النهضة للطبع والنشر والتوزيع – بيروت ١٩٩٧م .

- مصطفى عبد الكريم الخطيب

٢٢. "معجم المصطلحات والألقاب التاريخية " ، مؤسسة الرسالة – بيروت ١٩٩٦م.

- نجوى كمال كيرة (دكتورة)

٢٣. "الجواري والغلمان في مصر في العصرين الفاطمي والأيوبي" ، مكتبة زهراء الشرق – القاهرة ٢٠٠٧م

- نظير حسان سعداوي

٢٤. "جيش مصر في أيام صلاح الدين " ، مكتبة النهضة المصرية – القاهرة ١٩٥٦م.

- هاملتون جب

٢٥. "صلاح الدين الأيوبي" تحرير / يوسف أيبش ، بيسان للنشر والتوزيع والإعلام – بيروت ١٩٩٥م.

ثالثاً : الدوريات:

- **فوزي خالد الطواهية :**

١. "الإقطاع العسكري في بلاد الشام في العصر الأيوبي" ، بحث منشور في المجلة الأردنية في التاريخ والآثار ، قسم التاريخ ، كلية الآداب – الجامعة الأردنية ، مجلد ٦ عدد ٣ – سنة ٢٠١٢م.

رابعاً: رسائل جامعية غير منشورة:

- **شرين ثابت حسني عبد الجواد**

١. "ألفاظ المقادير في العربية" (دراسة في البنية والدلالة) رسالة ماجستير في اللغة العربية من كلية الدراسات العليا – جامعة النجاح – نابلس – فلسطين ٢٠١٢م.

خامساً : المراجع الأجنبية :

- **David Nicolle**

1. "Saladin Leadership – Strategy – Conflict" published by Osprey Publishing Midland Oxford–UK 2011 P13

- **Stevenson**

2."The Crusaders in The East" Cambridge University Press 1907

الملاحق

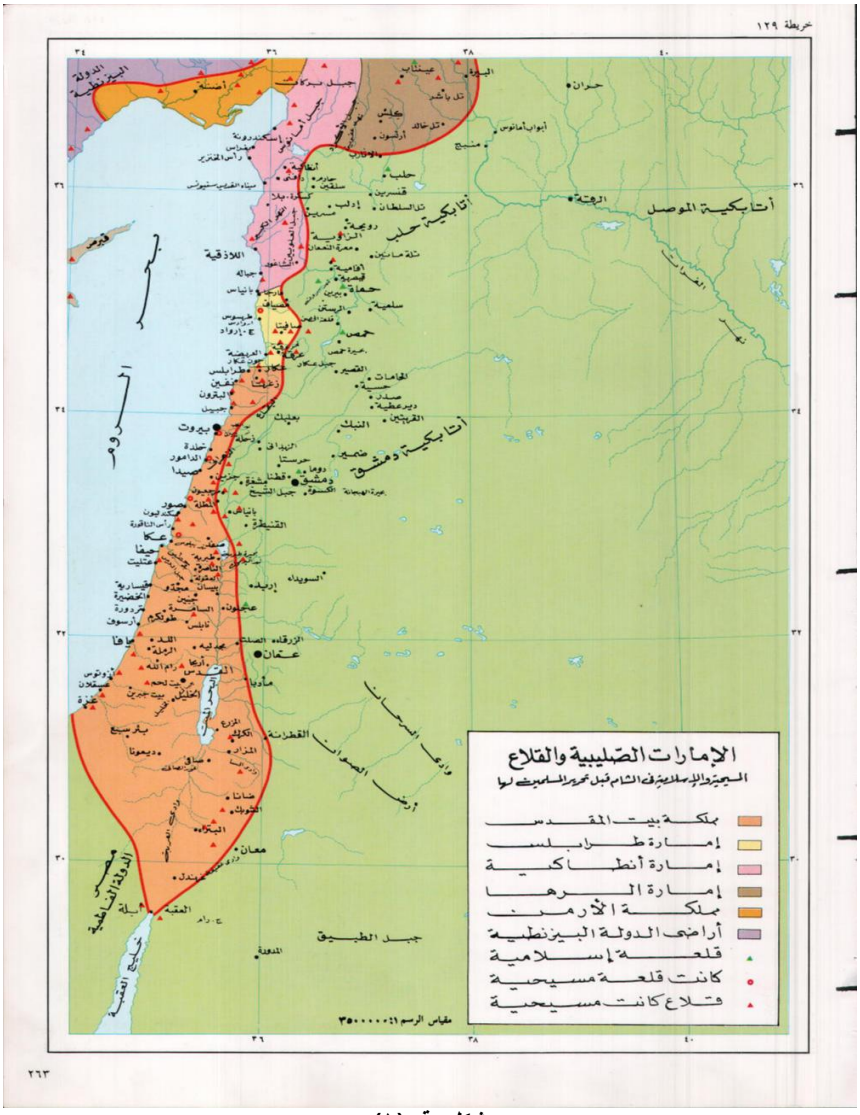

شكل رقم (١)

خريطة توضح الإمارات الصليبية والقلاع في الشام

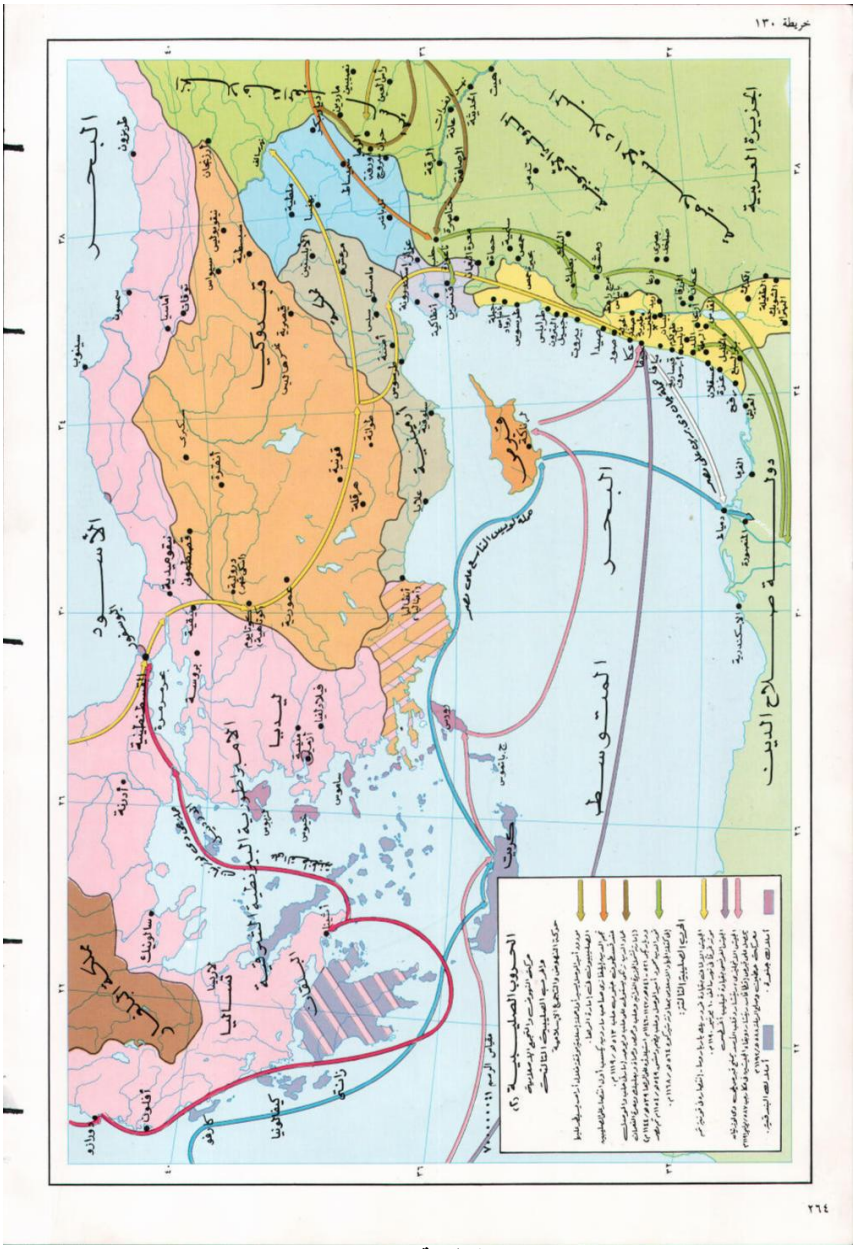

شكل رقم (٢)

خريطة للدولة الأيوبية في عهد صلاح الدين

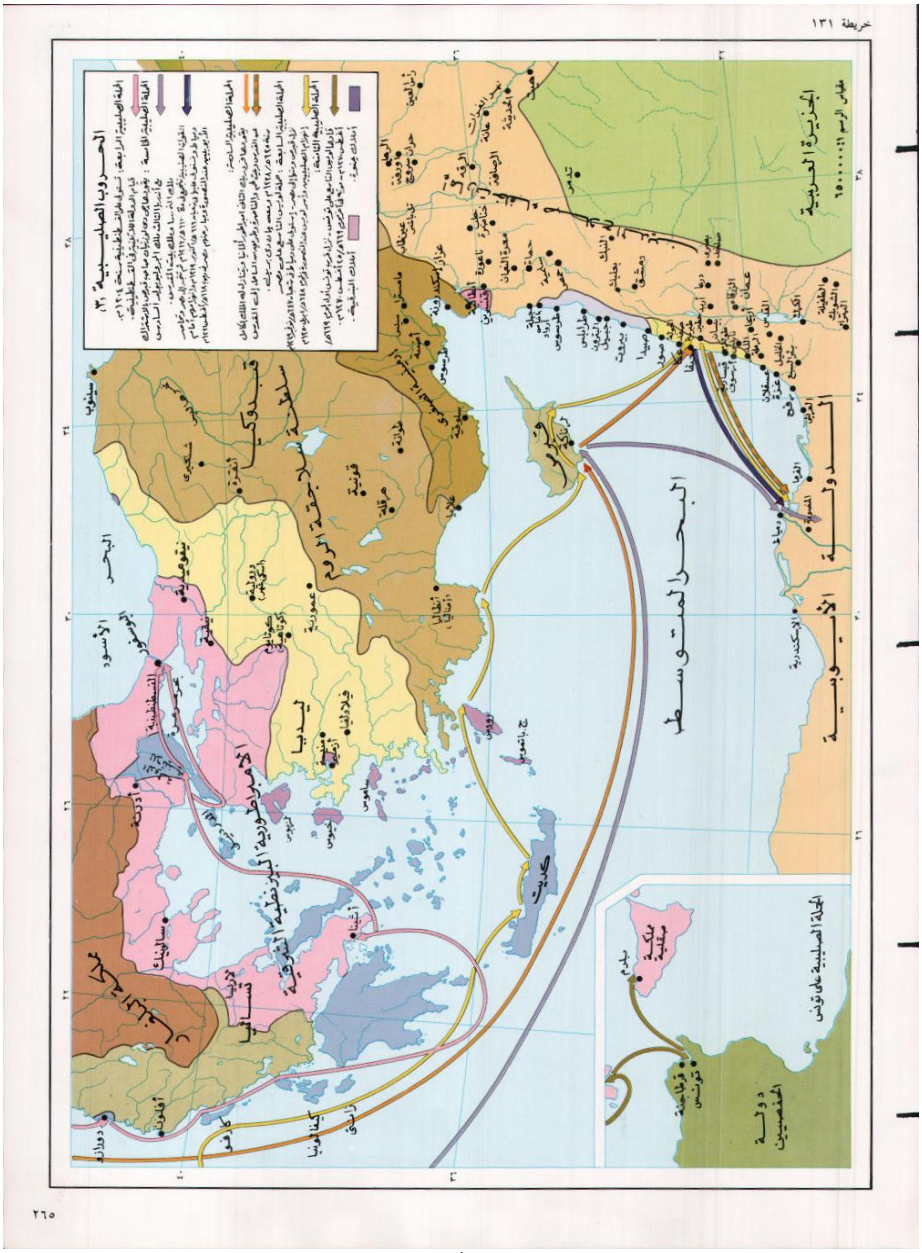

شكل رقم (٣)

خريطة للدولة الأيوبية في زمن خلفاء صلاح الدين